



روايات د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



عذراء جاكرتا

عبد الرحمن

Jakarta's Virgin

Dr. Naguib Al-Kellani

روايات ونجيب الكيلاني

من إصداراتنا



Design by Abdul Rahman Magdy



المصحوة
ALSAHOH

دار الصحوة للنشر والتوزيع

5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب

السيدة زينب - القاهرة

تليفون 0020223937718

تليفاكس 0020223937767

بريد إلكتروني

daralsahoh@gmail.com

روايات نجيب الكيلاني

عذراء، جاكسون

— د. نجيب الكيلاني —

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للناسر

١٤٢٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٠٥٩٨

الترقيم الدولي:

977-255-355-4



للنشر والتوزيع
٥ عطمة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٢٧٧١٨
تليفاً كس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٢٧٧٦٧
daralsahob@gmail.com

شخصيات الرواية

- * الزعيم . . زعيم الحزب .
- * الزوجة . . زوجة الزعيم .
- * فاطمة . . فتاة جامعية تنسب لجماعة «ماشومي»
الإسلامية .
- * القائد . . قائد الحرس الجمهورى .
- * مورنى . . خلية قائد الحرس .
- * أنانج . . سجان .
- * قائد السجن السرى . .
- * حاجى محمد إدريس . . أحد العلماء المجاهدين ، ووالد
فاطمة .

- * أبو الحسن . . طالب جامعي - خطيب فاطمة .
- * جميلة . . عضوة في المنظمة .
- * الضابط . . ضابط في السجن السرى .
- * جنرالات - وجنود - ونساء ورجال وأعضاء بالحزب .



الفصل الأول

تناول الزعيم الكأس للمرة الخامسة، ومع ذلك فقد بقي محتفظاً بتوازنه، متمالكاً لأعصابه، عيناه تومضان في فرح طارئ، وملامح وجهه قد بدت منبسطة لا يعلوها همٌّ أو كدر، كان متوسط القامة أسوي السمات بكل معنى الكلمة، جذاب السمرة، ومال على زوجته ورفيقة كفاحه، وهمس:

- «أنت زوجة ورفيقة . . امتزج حبنا بالمبادئ . . أليس هذا أروع حقيقة في الوجود؟» . . هزت «تانتى» كتفيها في امتعاض، واستدارت صوب الباب المغلق، وهي تقول في غير قليل من الضيق:

- «أنا أعرفك . .» .

- «بالتأكيد . . يا قمرى المضى . . أشرفت على أثناء
أعوام الدراسة فى الخارج . . يا لها من لحظات رائعة . .
عندما التقيت بك . . نسيت كل الفتيات الجميلات
الشقراوات وأصبحت أنت أروع حقيقة فى . .» .

أشاحت بوجهها وهتفت مقاطعة :

- «أنت لا تفكر إلا فى نفسك . .» .

بدا على وجهة الأسمر ومضات من غضب، وقال :

- «أنا حامى الجماهير الكادحة . . وهبت حياتى
لقضيتهم العادلة فكيف ترمينى بالأناية، يا تانتى؟» .

نظرت إليه فى غيظ :

- «ألا عيبك لا تخفى علىّ وأنا أعرف نزواتك العديدة
فى المنظمة، والمنظمة هى منظمة الحركة النسائية وهى تضم
عدداً كبيراً من الفتيات المثقفات اللاتى برمن بسوء الأحوال
فى البلاد، وتلوث فكرهن بالثقافات المتضاربة فانتهز
الآخرون الفرصة . . واستغلوا بلبلتهن الفكرية، وتطلعهن

للمستقبل أفضل ، واستطاعوا أن يقدموا إليهن خليطاً من الأفكار المرقعة التي تجمع بين الطموح والمجد والقومية والقشور الدينية من الجانب السياسى بأسلوب مرن بازع ، فانخرطن فى سلك التيار الذى يتزعمه الزعيم . .

وتدرك جيداً أن زوجها يحب أربعة أشياء : هى الكأس والنساء والخطابة والشهرة ؛ ولذا غمزت بإحدى عينيها قائلة :

- «أنا أعرف جيداً ما يدور فى اجتماعاتك المغلقة بهن . .» .

نظر إليها فى أسف ، وقال :

- «لشد ما أخاف أن تكون الأفكار البرجوازية المعقدة قد تسلت إلى رأسك الجميل . .» .

صرخت فى غيظ :

- «أنا امرأة . .» .

- «وأنا رجل . .» .

- «لقد انتهى عهد السلطان وحریم السلطان . . .» .

- «هذه حقيقة . . .» .

ضربت بقبضتها على منضدة من الخشب الثمين مطعمة
بالعاج والفضة ، وهتفت :

- «أصبحت أكره كلمة حقيقة . . . إنك تكذب . . . ثم
تحدث عن الحقيقة . . .» .

أتذكر أنك على علاقة بمدام ساسترو . . . الرفيقة
المحترمة . . . وسورابا . . . ومورنى . . . وغيرهن . . . ! ابتلع
ريقه ، وقال فى تلعثم :

- «افهمينى يا حبيبتى . . . لو تناوبتك الشكوك هكذا فى
كل امرأة أقابلها ، فمعنى ذلك أن أعمال الحزب ستتعل . . .
نحن نسبق الزمن ، ولا مجال لتضييع الوقت . . . يجب أن
تدركى أنك زوجة زعيم الحزب ، ووزير من أكبر الوزراء ،
وعضو المجلس التأسيسى ، وعضو البرلمان ، ونائب رئيس
المجلس الاستشارى الأعلى ، والحامل لأعلى وسام من
أوسمة الدولة . . .» .

ضحكت فى سخريه مؤلة وهمست فى حنق :

- « لا شك أن هذه مؤهلات عظمى تمنحك الحصانة الكاملة لتفعل ما يحلو لك . . » .

ثم انتصبت كنمرة مفترسة وهدرت :

- « يجب أن تفهم أن كل ذلك تحت حذائى . . أنا امرأة لها كرامتها . . » .

أخذ يلوح بسبابته اليمنى مستنكراً ويقول ، وقد لعبت الخمر برأسه :

- « لا . . لا . . ليست هذه التى أعرفها . . هذه أعراض تتاب المرتدين فى كل العصور . . إذا جعلوا المبدأ العظيم دون تطلعاتهم الشخصية . . » .

مدت رأسها نحوه ، وأحنت خصرها النحيل ، وقد وضعت يدها اليمنى وسطها ، وبسطت كفها اليسرى تجاهه ، وقالت :

- « وأنت !! أنت تعبد ذاتك . . أنت كل شىء . . . والحزب بماله وكادراته . . وأيضاً نساؤه الجميلات كل ذلك من أجلك . . » .

هز رأسه وتمتم:

- «أنت فى حاجة إلى غسيل مخ . . .» .

- «لست إقطاعية . . ولا رجعية . . ولا ثورة مضادة . .» .

أخذ يضحك . . ويضحك . .

طوقها بذراعيه ، وطبع على ثغرها قبلة طويلة ، فهمست فى ضعف ظاهر:

- «إنى أكرهك . . .» .

- «النساء يعكسن البديهيات . . .» .

- «لتكن وزيراً أو زعيماً . . لكنك نذل . . .» .

ضحك ثانية من كل قلبه ، ثم قال:

- «إن إحدى زوجات الرئيس تذوب جداً بين ذراعى . . لكنى لا أطيقها . . .» .

- «ولماذا تراقصها إذا؟» .

- «لسبب بسيط يا حبيبتى . . حتى لا يغضب الرئيس . . .» .

إنه بالنسبة لنا فرصة تاريخية . . ومن ثم فإن مرضاته
والمحافظة عليه حتمية تاريخية» ، كما يقولون . . إنه أعظم
نصير رجعي للفكر التقدمي . .

قالت وهي تتناول كأساً :

- «أصبحت أمقت هذه المصطلحات الحزبية لكثرة
تكرارها . . .» .

شرد بضع لحظات ثم قال :

- «سنجعل من الرئيس قنطرة نعبرها إلى قمة السلطة . .
وبعد ذلك نسحقه كحشرة . . إنه مخلفات الرجعية
والعصور البالية . . وستخفق الرايات الحمراء في شوارع
جاكرتا . . في آلاف الجزر الخضراء . . وستجدين ملايين
الصور لزوجك تغطي الجدران والنوافذ والأبواب . .
واللافتات . . وستتحدث صحف العالم عن الزعيم كما
يتحدثون عن نجوم العالم ورؤسائه . .

سأكون أحد المحررين الكبار . . وسأجعل من الجزيرة
الصغيرة التي ولدت فيها قبلة الزوار والسواح . . وسأجعل

من زوجات الجنرالات الكبار أرامل . . وسأسوق علماء الدين كما تساق الأغنام . . هذه الحيوانات المنقرضة . . سأحكم مائة مليون من البشر . . الذى أمامك الآن . . سيكون إله بلادنا الجديد . . ما معنى كلمة «إله» إنه القوة الخلاقة المسيطرة الجبارة . . سأكون كذلك . .» .

قالت فى خبث وقد هزتها كلماته، وزايلها غضبها، وأرادت أن تعابته :

- «لكن الإله غفور . . باق . . وأنت . . ستموت يوماً ما» .

احتقن وجهه فى غيظ وتمتم :

- «أنا أختار من الصفات ما يروق لى . .» .

- «ستكون إلهاً ناقصاً أو نصف إله يموت . .» .

- نظر إليه وقد تخضلت أهدابه بقليل من الدموع ثم دق

المنضدة بقبضة متشنجة وصرخ :

- «لا تذكرى الموت . .» .

أحنت رأسها فى دلال، وقالت باسمه :

- «أمنت بك . . .» .

ابتسم . . .

ثم عاد يقول: «إن المستقبل فى أيدىنا، وأن نسيم الشرق يهب ليطغى على نسيم الغرب . . .» .

قالت: «أجل . . . التاريخ يعيد نفسه» .

هتف محتدأً: «التاريخ لا يعيد نفسه . . . تلك فكرة رجعية منتنة . . . فى كل يوم جديد . . . صور جديدة للصراع تثبت دائماً . . . ومبادئ جديدة تولد وأنباء لكل عصر . . . هذا فجر الانتصار . . . الغرب يموت ويتآكل . . . لأنه يضاد منطق الحتمية . . . والشرق ينضح ويصحو وسيطر . . . لأنه فهم مغزى القصة الأزلية . . . وأدرك معنى التاريخ . . . انظرى . . . إننى أرى كل شىء أمامى . . . الرايات . . . الدماء تصبغ الجزر . . . وتحيل الورود الصفراء إلى حمراء . . . الفقراء يغنون أغنية حلوة . . . انظرى . . . جماجم العلماء الخربة تنهشها الكلاب . . . لا شك أن جدى كان تترياً . . . إنى معجب بتاريخ المغول والتتار . . . وثورة القرامطة والزنج . . .

وعبيد روما . . وأتباع مزدك في فارس . . هؤلاء الذين كانوا يسحقون المواضع القديمة . . كانوا يجربون كل شيء . . لكن للأسف لم ينجحوا تمامًا . . قال لى مهندس هولندي إبان الاستعمار الهولندي لبلادنا . «الدين هو العقبة الوحيدة في طريق تقدمكم . .»، وكان أبى عبد الله يرتجف كلما تكلمت عن الدين . . ويفتح القرآن ليقراً فيه . . كان بدنى يقشعر وأنا أسمعته يرتل الآيات . . وكانت خطاياى أكثر من أن يغفرها الله . . الحقيقة يا تانتى أن اليأس ملأ كيانى . . وأنا أكره أن يحكمنى أحد . . لقد خلقت لكى أكون حاكماً . . وخلقت لكى أفعل ما يحلو لى . .» .

اقتربت منه «زوجته» وربتت على كتفه فى حنان، وقالت:

- «أنت تهذى . . كفى كلاماً . .» .

لم يكثر لها بل انطلق يتكلم: «وحاول المبشرون أن يسيطروا على عقلى ليحولونى إلى الديانة المسيحية عرضوا على المال . . والمنح الدراسية . . ولوحوا بفتيات جميلات كالورود الياصرة . . زعموا أن الاعتراف أمام «الأب المقدس» يحو الذنوب . . آه هذا عصر الفلسفات الكثيرة . . إن

رأسى يدور . . السعيد فى هذه الحياة هو الحيوان . . لن يبعثه
الله ولن يحاسبه . . تمنيت فى أوقات كثيرة أن أكون
حيواناً . . بلادنا يطحنها الشقاء» .

ضحكت تانتى ، وقالت وهى تخلع معطفها ، وتبدو
مفاتها:

- «هون عليك . . وما الذى يشقك هذا قصرنا ملء
بكل شيء . . والخدم يروحون ويجيئون . . ولدنا أموال
طائلة . . والحزب بكادراته تحت تصرفك . .» .

ثم غمزت بإحدى عينيها:

- «ونساؤه أيضاً . . يقبلن يديك . .» .

ضمها إلى صدره فى حرارة ، وتمتم:

- «حياة الحيوانات . . ممتعة . . ممتعة للغاية» .



الفصل الثانى

كانت الندوة التى نظمت فى إحدى كليات «جاكرتا» ندوة ممتعة، وعلى الرغم من مرور خمسة أسابيع عليها إلا أن الزعيم ما زال يذكرها جيداً، وخاصة إنها كانت مقصورة على فتيات الجامعة، لقد وقف على المنصة، وأخذ يشرح كيف أن المرأة كالرجل تماماً فى التكليف وحمل أعباء الرسالة الإنسانية فى خدمة الجماهير الكادحة وتحريرهم، وكان يكرر أنه قد سقطت مبادئ عصر «حريم السلطان»، ومبادئ «حزام العفة»، وأخذ يردد وهو يتسم:

- «ليست عفة المرأة من نوع آخر غير عفة الرجل، وعصر الإقطاع كان ظالماً فلم يصنع للرجل حزاماً للعفة كما للمرأة، يجب أن تكون حياتنا الجديدة شعارها أن لا تفرقة بين الرجل والمرأة . . .» .

وتحدث كثيراً عن حتمية التاريخ، وحكم الطبقة، والبرجوازية المتعفنة، والإمبريالية وأعوانها والرجعية ومخططاتها، والإتجار بالدين . .

ثم تحدث عن الحلال والحرام، أكد أن الخوف المبهم من الجحيم والآلهة، إنما هو مصدر العقد النفسية والأمراض العصبية، والتردد والوهن والجمود، وهو المسئول الأول عن السلبية الضاربة في شتى البلاد.

وخلص بعد عرض ذكى بارع إلى أن الحلال والحرام بمفهوماهما الصحيح يتركز في أن كل ما نهض بالشعب وحقق نفعاً مادياً، وساعد في إشعال الثورة «التقدمية» فهو الحلال ولاشئ غيره، وعكس ذلك تماماً هو الحرام بصرف النظر عن كل ما ورد من قيم عتيقة ونصوص قديمة . .

وضجت القاعة بالتصفيق الحاد، كان فتيات المنظمة هن اللاتي يبدأن بالتصفيق والهتاف، وكن يرددن الشعارات البراقة المحفوظة، وكان الزعيم يقف سعيداً مبهوراً بالمظاهر الضخمة التي تحيط به، كان حلو النكتة، لاذع التعليق،

سريع البديهة، قادراً على استثارة عواطف الجماهير، وتوجيهها الوجهة التي يريد لها.

وشقت الصفوف فتاة غريبة الشأن . . قاصدة المنصة التي يتكلم من فوقها الزعيم، كانت فى حوالى العشرين من عمرها، أجمل ما فيها . . عيناها اللتان تشرقان حيوية وإيماناً وجلالاً، وكانت طويلة الأكمام، ترتدى على رأسها شالاً أبيض يخفى شعرها، ويبرز وجهها المتألق النضر، قالت وهى تقترب من الزعيم:

- «أسمح لى السيد أن أدلى بتعليق . . ؟».

انحنى فى أناقة، وافتتر ثغره عن ابتسامه كبيرة، وأفسح لها مكاناً أمام المكروفون.

قالت «فاطمة»- وهذا هو اسمها-:

- «إننا نغلط أنفسنا حينما نظن أن المرأة كالرجل تماماً . . فالعلم يؤكد أن لكل طبيعته . . هرمونات الرجل غير هرمونات المرأة . . قوّة عضلاتها غير قوّة عضلاته . .

وظائفها الفسيولوجية غير وظائفه . . أيكن أن تكون هذه الحقائق كلها غير ذات موضوع؟؟ أيصح أن يكون ذلك التركيب العضوى والنفسى دون تأثير» .

إن الخطب الحماسية . . غير العلم . . هذا ما أريد أن أوّكده . .

وحدثت ضجة ، وغمغات عالية كان مصدرها الفتيات غير أن الزعيم ابتسم ، وأشار عليهن أن يصمتن حتى تكمل فاطمة حديثها . . وعادت فاطمة تقول :

- «والحلال والحرام عقيدة دينية مصدرها الله . . جاءت على أيدي أنبيائه الكرام . . وهى أعلى منالاً من فكر الإنسان وتصوره القاصر . . القتل حرام . . السرقة حرام . . ولن تصدق أى فلسفة فى قلب الصورة . .

والحكم لا تحدده مصلحة طبقية مهما كان وزنها ، ولكنه مجموعة من القواعد العادلة التى أقرتها شريعة الله لمصلحة جميع الناس . . واختلاف الناس فى المهارات الشخصية والجسدية والمادية يجمعهم على معنى سام . . هو الإخوة . .

الإخوة غير العداء الطبقي . . الإخوة تجعل من الجميع
سواسية كأسنان المشط أمام الله وأمام القانون . . .» .

وساد الهرج والمرج مرة ثانية . . إلا أن الزعيم لوح بيده
مهدتاً فانصاع الجميع لرأيه، ومضت فاطمة تقول:

- «أفكاركم بمفهومها الطبقي هي الحقد . . والعقد
النفسية . . هي إرساء قواعد التناحر الدموي، وإتلاف القيم
الإنسانية الرفيعة . .

وكان مجيء الدين الإسلامى فى بلادنا . . ثورة على
الفساد والظلم والتبعية والعبودية . . كان باعثاً للقيم
الفاضلة فى قلب الإنسان . . كان مولد حضارة . . هذا ما
هو ثابت فى التاريخ القديم والقريب . . المؤمنون وحدهم
هم الذين تصدوا لجبروت «هولندا»، وصارعوا «اليابان»
وحققوا الحرية . . وسحقوا شيعة الكفر والعبث . .

إننا نلعب بالنار إذ نستغل انهيار الأوضاع الاقتصادية،
ومأساة الفقر فى تحويل الناس إلى العقائد الفاسدة الداخلية . .
ونقضى على تميزنا القومى والدينى بفلسفات مرقعة . . .» .

ولم تستطع فتيات الحزب هذه المرة أن يتصددين لموجة التصفيق العارمة التي قوبلت بها «فاطمة» تأييداً وتحبيذاً لأرائها . .

فأسرع الزعيم إلى المنصة، ثم ردد الكلمات نفسها التي كان يخدع بها جماهير العمال، وقف يقول:

- «الله ما فى السماوات وما فى الأرض . . إننى أطلب بتحقيق عدالة الإسلام . . التى تحارب الفقر والظلم والجماعة والمرض والجهل . . لكن فئة من الناس تريد للشعب المسلم أن يظل فقيراً مريضاً جاهلاً حتى يستطيعوا أن يبقوا ويحتفظوا بمرآكزهم . . إنهم يدعون بأنهم مسلمون، بينما هم يحاربون تعاليم الإسلام . . إنهم يتهموننا بالإلحاد . . فإذا كان الخير والرفاهية هو ما يسمونه إلحاداً فمرحباً بالإلحاد .

إننى قرأت القرآن والتفاسير كلها، فلم أجد جملة واحدة تؤكد هذا المعنى . . فالإسلام يحارب الفقر والجهل والمرض . . وهذا ما تدعو إليه مبادئنا وهى الإسلام شىء واحد .

وكان التصفيق هذه المرة ضعيفاً واهناً، الكثيرات لم يستطعن أن يفهمن، فالتقاط معنى من هنا ومعنى من هناك لا يفيد القضية المطروحة في هذا الوسط الجامعي . .

لذا فقد ثارت فاطمة وهتفت في عصبية:

- «أنت تسخر من عقول الناس أيها الوزير
وتخدعهم . . .»

فضجت القاعة بالضحك الممتزج بالتصفيق والهتاف، واحمر وجه الزعيم خجلاً، تندى جبينه بالعرق، لكنه حافظ على هدوئه واتزان، واقترب من مكبر الصوت، وقال:

- «إننى سعيد بأراء الزميلة الفاضلة . . فلكل وجهة نظره . . وسوف أستكمل معها النقاش بعد المحاضرة، فقد طالت بنا الجلسة» .

ترددت فاطمة عشرات المرات فى الذهاب إلى مقر المنظمة لمقابلة الزعيم طبقاً للاتفاق الذى تم بينهما بعد المحاضرة، كانت يائسة من تحول الزعيم عن رأيه، فهى

تعرف مركزه فى الحكومة والمجلس الاستشارى، ووزنه العقائدى فى حزبه الكبير، وفى المنظمات العالمية، وليس من المعقول أن ينحاز رجل له ثقله إلى رأى فتاة فقيرة ضعيفة، ومع ذلك فقد قررت الذهاب إليه، مَنْ يدرى؟ لعله لن يأتى، فلتذهب لمجرد المشاهدة والتأمل، كى ترى بنات جنسها كيف يفكرون ويتحركن فى منظمة كهذه..
والزعيم كاتب كبير فى الصحف والمجلات، وشخصيته مرموقة فى المجتمع، وهى تريد أن تسبر غور شخصية كهذه.. . . إنها رحلة شائقة ممتعة أن ترى كبار القوم كيف يفكرون ويتجادلون..

ولم تستطع «فاطمة» أن تخفى حقيقة الأمر عن والدها حاجى محمد إدريس، وقد كان شيخاً تخطى الستين من عمره، تجول كثيراً فى بلاد العالم، تلقى العلم فى الأزهر الشريف، وحج إلى بيت الله الحرام، وزار أوروبا مرة واحدة، وهو بمثابة مدير لعدد من المدارس الإسلامية التى أنشأتها جماعة «ماشومى» الإسلامية..

ابتسم حاجي محمد، وقال :

- «أرى أن ذهابك عديم الجدوى . . .» .

- «هذا إذا قيس بمدى تجاوبه لرأى . . لكنى أهدف إلى

شيء آخر . . أريد أن أرى . . مجرد الرؤية» .

مسح على لحيته البيضاء، وقال :

- «الزعيم تلميذ مخلص . . وابن بار للثقافة الملحدة . .

الجميع يعرفون ذلك . . هو ثعلب خطر . . .» .

قلت فاطمة فى لهفة :

- «أنه لا يملك سوى الكلمات الطنانة» .

- «لكنه يا ابنتى ذو طموح خطر . . وله تأثير كبير على

رئيس الدولة» .

- «ليكن . . إن إيمانى أقوى من سفسطه» .

- «لن تصلى إلى نتيجة» .

- «إن له قطاعاً كبيراً من المؤيدين، ويجب كشفه» .

ضحك حاجي محمد إدريس، وقال :

- «أربعة أخماس العالم مخدوعون بطريقة أو بأخرى» .

- «أود أن أقابله» .

- «حسنًا . لا تذهبي قبل صلاة المغرب» .

حينما دخلت فاطمة مقر المنظمة شدت الأنظار إليها بقوة، علقت إحدى الفتيات قائلة «سقطت القديسة» وتضحكت، وهمست أخرى: «تنزياً بزى الملائكة فى عصر الشياطين»، وقالت ثالثة: «أقسم أن هندامها جميل ومثير . . لكن لماذا دخلت هنا؟؟» مالت عليها جاريتها قائلة وهى تغمز بإحدى عينيها فى خبث:

- «هى على موعد مع الزعيم؟؟» .

تلعثمت خطوات فاطمة، لم تكن تدرى أين تتجه، لكن اضطرابها لم يطل، فقد قدمت فتاة ناهد، تضع على صدرها شارة الحزب، وترتدى سروالاً أصفر وصداراً صوفياً يبرز مفاتنها، وطاقيه بيضاء . . وتقدمت صوب فاطمة، وقالت:

- «هو قادم بعد لحظات . .» .

الغرفة التي جلست فيها فاطمة تتوهج بالألوان،
والسجاجيد الفاخرة، وهناك منضدة كبيرة حولها أكثر من
ثلاثين مقعداً، ثم هناك شعارات كتبت بماء الذهب . .
وشخصيات أخرى ثانوية كلها دخيلة لم تنهض على أرضنا
أولها تاريخ في بلادنا . . نحن هنا في هذا المكان نستعير كل
شيء . . حتى البطولات . . وجاء الزعيم . . كان أيقناً
كعاداته باسمًا . .

- «إننى سعيد بهذا اللقاء . . وبرغم مسئولياتى
الكثيرة . . إلا أن أروع اللحظات لدى هى التى أجد فيها
إنساناً يفهمنى . . ويدرك أبعاد الحقيقة . . المعرفة نور . . أنا
ابن هذه الأرض الطيبة . . أنا وأنت صوتان معبران عن
مأساة هذا الشعب مهما اختلف النداء . . »

وصمت برهة ثم قال :

- «حسناً . . سوف نلتقى عند نقطة أظننا لن نختلف
عليها . . إننا جميعاً نؤمن بوحدة الطبقة العاملة . . »

رفعت فاطمة يدها محتجة وهتفت :

- «أنا أو من بوحدة الشعب كله» .
- ابتسم الزعيم ، وقال :
- «الشعب هو الطبقة العاملة في الحقيقة» .
- وابتلع ريقه واستطرد :
- «والطبقة العاملة هي العمال والفلاحون والمثقفون
الأحرار والجنود التقدميون» .
- قالت فاطمة في شجاعة :
- «الطبقة العاملة في نظرك ممن يؤمنون بفلسفتك» .
- «شئ كهذا» .
- «لن نلتقى إذن» .
- «اللقاء ممكن دائماً» .
- «ليس في المبادئ أنصاف حلول» .
- «نحن نسميها سياسة مرحلية . . أو فترة انتقال . . أو
أى شئ» .
-

لم يتضايق إلا عندما قالت :

- «أنتم تخذعون أنفسكم والشعب» .
 - «نحن نخطط لحياة أفضل برغم كل شيء» .
 - «لكنكم تقتلون أعداءكم . . تخطفون معارضيكم . . أو تضطهدونهم» .
 - «الشريعة الإسلامية تبيح ذلك في بعض الأحيان» .
- قالت فاطمة في حدة :

- «لستم ممثلين للشريعة . . الشريعة ليست فلسفة تقبل الصدق والكذب . . ولكنها حقيقة إلهية» .
 - ربت الزعيم على كتفها قائلاً «عزيزتي» فانتفضت وابتعدت عنه قائلة :
 - «لا تلمسني» .
 - «ماذا في ذلك؟؟ ألم تراقصى صديقاً في حياتك؟» .
- قالت فاطمة :

- «زعمت بالأمس أنك مسلم، وتقرأ القرآن، وتعرف

التفاسير هل فى الإسلام الذى قرأته ما يبيح مراقبة الأجناب؟؟ وفى الحفلات العامة؟؟» .

ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه، وقال :

- «نحن فى القرن العشرين . . ثم ألم تقرئى شيئاً عن جوارى الخلفاء؟» .

- «لست جارية . . .» .

أدرك أنها من الفتيات اللاتي يستعصين عليه تماماً :

- «إننى أفخر بك كصديقة ذات شخصية قوية برغم اختلاف الرأى بيننا» .

- «جئت لكى تقنعنى أو أقنعك» .

- «يفصل بيننا ثلاثة عشر قرناً من الزمان» .

- «إذن انتهينا» .

- «لكن إعجاب الرجل بالمرأة لا يعرف فوارق . . ألم تسمعى عن فيلسوف أحب أو رجل عصرى أحب ريفية ساذجة؟ هل قرأت قصة سندريلا؟؟» .

قالت فى بساطة عجيبة :

- «أنت عابث» .

ابتسم وتمتم :

- «لكى تفهمينى يجب أن تقرئى عدداً من الكتب . . .» .

نظرت إليه فى شىء من السخرية ، وقالت :

- «لى محاولات فى كتابة الشعر والقصة . . قرأت

لبوشكين . . وجوجل وغيرهم . . قرأت مؤلفاتك . .

لكنى لن أسقط فريسة ثقافة واحدة . . قرأت أيضاً تاريخ

شعب بلادنا والتاريخ الإسلامى . . وإقبال شاعر الهند

وطاغور» .

قال فى برود :

- «فلتقرئها مرة ثانية» .

- «لتفعل أنت ذلك» .

فاجأها بسؤال غريب ، لم يخطر على بالها :

- «هل تقبلين الزواج؟» .

نظرت إليه في استغراب ، وقالت :

- «محرم شرعاً الزواج من رجل لا دين له» .

- «لكنى مسلم» .

- «بشهادة الميلاد فقط» .

- «ليس الفرق كبيراً» .

سحبت حقيبتها ، وقالت :

- «السلام عليكم» .

وظل ينظر إليها ، وهى تدق الأرض فى ثقة بلغت الباب ، ثم عاجلته بتؤدة ، وما أن خرجت حتى صفقته فى شدة . . وبقيت صورتها الطاهرة الزاهية مسيطرة على خياله .

لا يدري الزعيم لماذا تذكر زوجته فى هذه اللحظة بالذات ، وأخذ يتسعيد لقاءهما معاً فى أول مرة . . كان كل شىء بسيطاً سهلاً تحاباً . . ورقصاً . . وتنزهاً فى شتى

الأماكن . . . وعباً من كأس الشوّة . . . ثم تزوجا . . . لكنه الآن
أمام فتاة رجعية فقيرة ترفض الزواج منه . . . من وزير-
وزعيم . . . أكبر حزب . . . هل كان يتصور أن يحدث ذلك؟
وتتم في ثقة لا حد لها:

- «إني قادر . . . قادر . . . وسأعرف كيف أسحق
كبرياءك، وأمزق الأوهام التي تغلف رأسك الجميل».



الفصل الثالث

كان الزعيم يمضى هادئاً سريعاً داخل قسم «الاستخبارات» التابع للحزب، وكان ينظر إلى الملفات الضخمة الكثيرة التي تملأ الأرفف، وتخفى وراءها الجدران وتصل حتى السقف العالى، وكان قسم الاستخبارات مقسماً إلى أقسام أصغر، كل قسم متخصص فى حزب من الأحزاب الدينية أو السياسية أو الثقافية فى شتى أنحاء البلاد، كما أن هناك أقساماً خاصة لأسلحة الجيش المختلفة كسلاح الطيران والمدفعية والبحرية . . . إلخ، وتوجد ملفات خاصة بالضباط، ولم ينس الملفات الخاصة بكبار الكتّاب والشعراء حتى مشايخ المتصوفين ذوى الأهمية والتأثير لم يتجاهلهم، وكذلك المشاهير من خطباء المساجد وأساتذة الجامعات . .

دلف الزعيم إلى باب ضيق ، وعبر سرداباً طويلاً ثم ضغط على زر صغير فانفتح باب جانبي ، وما أن فتح الباب السرى حتى وجد رامى جالساً ينتظر . .

- «أعتقد أنك قد أعددت كل شيء» . .

وقال رامى وهو يسدد نظراته الحادة ، ويضع بعض الأوراق أمام الزعيم :

- «هذا كل شيء عن الكولونيالات والجنرالات» .

قال الزعيم وهو يتنهد فى ارتياح :

- «لا يصح أن يفلت أحد منهم» .

- «أعرف ذلك جيداً» .

- «وتذكرك أن الموت هو الحل النهائى لأى خلاف

سياسى» .

- «بالتأكيد يا سيدى الزعيم» .

- «والرحمة عند الثورة حماقة» .

- «أجل» . .

- «وليس لدينا شخص نصف نصف . . أما أن يكون معنا أو علينا . . المعتدلون أو المستقلون عبء على المجتمع بل لعل خطرهم مزدوج . . هم أعداء» .

- «كل ذلك في الحسبان» .

وقال المدعو رامى :

- «والسلاح؟؟» .

- «هل وصلت الشحنة الأخيرة؟؟» .

- «نعم . . سيدى إليك البرقية» .

أمسك الزعيم بورقة صغيرة وأخذ يقرأ :

- «وصلت البضائع . . الرجاء سرعة توزيعها مخافة

التلف» .

وشرد الزعيم بضع لحظات ، ثم تتمم :

- «الجنرالات أفسدوا الثورة السابقة . . أغلبهم مسلمون

متدينون . .

وقد سحقوا رجال تلك الثورة . . إذ سقط الجنرالات
هذه المرة، فسيكون النصر أسرع مما نتصور».

هز «رامى» رأسه، ثم قال:

- «وتلك قائمة محررى الصحف . . القسم (أ) محكوم
عليهم بالموت . . والقسم (ب) للزج بهم فى المعتقلات . .»
وأخذ رجل الاستخبارات يقدم إليه القوائم المختلفة بفتاتها،
والزعيم يناقشه فى كل شىء تفصيلاً . . وقبل أن ينصرف
الزعيم قدّم «رامى» صورة فوتوغرافية لفتاة . . نظر الزعيم
إليها جيداً ثم ابتسم، بينما قال رجل الاستخبارات:

- «إن وجودها فى كلية الآداب وسط طلبة الجامعة يبعث
على القلق».

- «أعرف كل شىء».

وتنهذ الزعيم قائلاً:

- «دعها الآن».

- «فهمت غير ذلك يا سيدى الزعيم».

- «من الحماسة أن نشدد عليها العقاب في هذا الوقت بالذات . . إن أصابع الاتهام ستشير صوبنا بالتأكيد» .
- «آخر التقارير تفيد بأن عدداً من الفتيات أخذ يتبعها» .
- «ليكن» .

وصمت برهة ثم قال :

- «يكتفى بأن يثار حولها الغبار . . قولوا مثلاً إن أبها عميل هولندي سابق . . وأنه يتلقى المعونات من الخارج . . وأنه تربطه بالمخابرات الأجنبية صلة . . وشوهوا سمعتها . . انسجوا من حولها القصص العاطفية المثيرة . . أتعلم ذلك يا رامى؟؟ إنها بالتأكيد ستجن . . أو تكون مناط السخرية بين الطلبة والطالبات» .

وقهقه قائلاً :

- «الموت أنواع» .

في الحقيقة أن رجال الحزب في بلادنا قد استطاعوا أن يسيطروا على الإرادة المدنية أصبحت المناصب الرئيسية في

أيديهم، ووضعوا أعوانهم فى المراكز الحساسة سواء فى الصحف أو الإذاعة أو المخابرات، ولذا قال الزعيم . .

- «فى الحقيقة نحن الحكام الفعليون . . نحن نحكم من يحكمنا، الرئيس نفسه أحد رجالنا . . وهروا الزعيم بعد ذلك خارجاً من مقر الاستخبارات، كان على موعد مع قائد الحرس الجمهورى . . وهو شاب متحمس كبير الآمال، يحظى بصداقات كثيرة ناجحة، وله مكانة مرموقة، يحب العمل كما يحب اللهو، المدخل إليه أن تشنى عليه، وتمتدح شجاعته وذكاءه، وكان لقاءه مع الزعيم فى «فيلا» فآخرة يملكها أحد أعضاء الحزب الكبار فى إحدى ضواحي العاصمة . . وعندما دخل الزعيم كان قائد الحرس يصب كأساً لنفسه ولإحدى خليلاته، وقال حين رأى الزعيم:

- «جئت فى وقتك . . لنشرب معاً» .

ثم مال على أذنه مكملأ:

- «نخب الانتصار المرتقب» .

قالت الخليفة «مورنى»:

- «أنا هنا» .

مال عليها القائد معانقاً ومقبلاً، وهو يقول:

- «أنت الجنة على الأرض» .

تغاضبت عابثة، وقالت:

- «الجنة تعنى الهدوء والظلال والنسيم الرائق . . وأنا

لست كذلك» .

ابتسم الزعيم معلقاً:

- «هي أبعد نظراً منك . . النساء يحبين اللعب بالنار . .

ويكرهن الجنة» .

ضحك القائد فى مرح، وقال:

- «إنهن يحيرننى» .

ثم التقت صوبها قائلاً:

- «أنت الجحيم بعينه» .

قالت محذرة:

- «ستحترق بنارى» .

- «أعشق مثلك النار يا غانيتى» .

وكان هناك بضعة نفر من أصدقاء الزعيم والقائد، وكذلك عدد من فتيات الحزب الجميلات، وأخذ الجميع يرقصون على أنغلم موسيقى راقصة لعلها يايانية، ومن آن لآخر تنبعث التآوهات والضحكات المتكسرة، والضوء الخافت الأحمر يوشى المكان بسحر ملتهب غامض . .

ومال الزعيم على أذن قائد الحرس، وقال :

- «هناك أنباء خطيرة» .

نظر الزعيم بعينين محمرتين من أثر الشراب، وقال :

- «أنا لا أهاب شيئاً» .

- «قائد القوات البرية أعلن أنه سيقوم بحملة تفتيش

على السلاح، ويذيع أن رجال الحزب يسلحون أنفسهم» .

تأرجحت نظرات القائد، وقال :

- «يجب القضاء عليه فوراً» .

- «ماذا تقول؟؟ إن ذلك قد يؤدي إلى كارثة» .
- «ما الحل إذن أيها الزعيم؟؟» .
- «التعجيل بالحركة ككل» .
- هز رأسه، وقال :
- «ونقضى عليه عند البدء» .
- «بل سنقضى على كل الجنرالات غير رجال الحزب» ،
قال القائد في ضيق ظاهر :
- «لا تزعجني بالتفاصيل .. ضع الخطة .. وقل لى
ابدأ .. وسأبدأ على الفور» .
- «إن الرجل الذى سيكون توقعه هو الأول على البيان
الأول للثورة جدير بأن يعرف كل شيء» .
- قهقه وعلق :
- «الرئيس معنا .. وغالبية الجيش معنا .. ورجالنا فى
كل مكان .. إننى إذن أستطيع أن أقود ثورة ضد السماء
ذاتها» .
-

مسح الزعيم على كتفه فى ارتياح وتمتم :
- «لنا النصر» .

وجاءت الفتاة- رفيقة القائد- وقالت فى تيه ودلال :
- «إن مجيء الزعيم أفسد علينا متعتنا» .

ابتسم الزعيم فى رضى ، هو يعلم أنها تنفذ الأوامر
الصادرة من الحزب بدقة . . ثم همَّ واقفًا ، وقال :

- «سأترككما الآن . . وسنكون على اتصال دائم» .

لم يلتفت القائد إليه ، فقد كان مشغولاً بفتاته التى طوقته
بذراعيها الجميلتين . . ثم صارت هى والقائد والزعيم
يرقبهما من بعيد حتى دلفا إلى إحدى الحجرات . .

وعندما صارا وحدهما ، قال القائد وهو يترنح :

- «أنا لم أهزم قط فى معركة حربية . . ولم تهزمنى امرأة» .

ضحكت ضحكة خليعة ، وقالت :

- «أنت تبالغ . . المرأة لا يهزمها أحد» .

نظر إليها كثور هاتج وعيناه تتوهجان رغبة :

- «أنت لى يا مورنى».

هجم عليها، وأمسك بذراعها فى عنف، فصرخت،
وضمها إليه فى ارتياح، وهو يغمغم:

- «الأبطال وحدهم يصنعون التاريخ . . ومن ثم فإن
لأبطال الشعوب حقوق لا تحد . . لهم ما يشاءون . .
القوانين لغيرهم . . أما هم فوق القانون . .

هم صانعو التاريخ الكبير . . يسقط الخونة . . يسقط
العملاء . . الموت لأعداء الشعب».

ثم سقط على الأرض وهو يهذى وسرعان ما راح فى
سبات عميق، وبقيت مورنى واقفة تقهقه من كل قلبها . .



الفصل الرابع

كان «حاجى محمد إدريس» يشعر بضيق ما بعده ضيق، فهو يرى أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوء . . فبالبلد فى حالة من الفوضى لا مثيل لها، السلطة الفعلية فى البلاد فى أيدي العملاء والأحوال الاقتصادية تسوء، وتتردى فى الحضيض، السياسة العامة للحكومات لم تقدم حلاً للجوع والمتعبين برغم التشدد بالخطب الرنانة، والشعارات الجوفاء، والحكام يعيشون فى واد وبقى سكان الجزر التعساء يعيشون فى واد آخر، زوجات الرئيس يسافرون فى رحلات إلى الخارج، كل واحدة منهن تنفق عشرات الألوف من الدولارات من العملة الصعبة التى تحتاجها البلاد، وقصور الرئيس عامرة بالتحف والمجوهرات والمتع المختلفة، حفلات الرقص الصاخبة فى قصور الرئيس،

والتي يشترك فيها عديد من الشخصيات الكبيرة وعلى رأسهم الزعيم محامى الطبقة الكادحة، يتحدث عنها الناس فى كل مكان، رجال الحزب يتحدثون عن العدالة وحقوق الشعب والاستغلال الضارب أطنابه، وهم يعيشون فى قصور كقصور ألف ليلة، ويستمتعون بكل ما يحلو لهم، والمخلصون من أبناء الأمة وعلى رأسهم أعضاء جماعة «ماشومى» الإسلامية يعيشون خلف الأسوار دون تحقيق أو رعاية، والصحف والمجلات السيارة أصبحت أسيرة لرجال الحزب، تخدم المخطط الهدّام، وتسخر من القيم الدينية، وتحطم تقاليد الشعب العريقة، وتنشر بين الشباب المفاهيم الفاسدة، والكثيرون من أبناء الشعب يظهرون ولاءهم للعملاء خوفاً على مستقبلهم، أو طمعاً فى اكتساب المغنم عندما ينقض الحزب ويستولى على ما تبقى من مقاليد الأمور، والمبشرون هم الآخرون يساندون الاتجاهات الفاسدة، ويحاولون اكتساب الأنصار معتمدين على عبث الحكام وتأيدهم لنشاطهم، ومستغلين ما تحت أيديهم من أموال وسلطة، وإذا عتب عليهم أحد رفعوا شعار

«البانجاسيلا» أو المبادئ الخمسة التي تنص على احترام جميع الأديان ..

وحاجي محمد إدريس يشعر بضيق من نوع آخر مصدره ابنته فاطمة الطالبة بكلية الآداب، لقد أتت بالأمس من الكلية محتقنة العينين، شاحبة الوجه، وما أن دخلت المنزل حتى انفجرت باكية، ثم تُردد في تعاسة: «أنا مظلومة .. مظلومة بأبتي» ..

وجاءت أمها وأخوتها وأخواتها، الجميع في حيرة من أمرها ثم جلست فاطمة تروى لهم، كيف أن الجامعة أصبحت بالنسبة لها جحيمًا لا يطاق، فألسنة السوء تنهش عرضها وتغرقها في الشائعات، والملصقات الصغيرة تملأ المدرج عنها، وترميها بالفجور وسوء الأخلاق، والمغامرات الدنيئة، والأعين تلاحقها أينما ذهبت، والتعليقات الماجنة تقابلها في كل مكان، وضحكات الهزاء والسخرية لا تجعلها تفهم كلمة واحدة من الدرس، أو تستقر بضع دقائق في المكتبة العامة، بل إن بعضهم قد شبك ورقة صغيرة في

مؤخرة شالها الأبيض مكتوب عليها باللغة الإنجليزية «أنا أحبك»، وبعض الغوغائيين أخذوا يصفقون لها وهي تدلف إلى قاعة المحاضرات، وبعد أن انتهت من حديثها قال أبوها في أسف:

- «دعيهم يموتوا بغيظهم».

- «أكاد أجن يا أبتى».

- «في كل عصر يا فتاتي حديث إفك جديد».

ثم أخذ يشرح لها قصة حديث الإفك التي تناولها القرآن الكريم عن السيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ وكيف أن الحاقدين والمنافقين حاولوا تشويه سمعتها وسمعة النبي الأعظم ﷺ، ولكن الحقيقة ظهرت للعيان، وخسر هنالك المبطلون..

همست فاطمة في حزن بالغ:

- «أنا ضعيفة».

- «أنت قوية بالله».

- «والمبادئ الفاضلة تضحل . . تموت» .
- «لن تموت أبداً يا فاطمة . . لأنها من صنع الله» .
- «الغوغاءيون يا أبتى أصبحوا يسيطرون على قطاع كبير من عقول غالبية المجتمع» .

قال فى تحد:

- «هذا وهمُّ يا ابنتى . . إنها مظاهر كاذبة . . تدوب وتفنى عندما تسطع عليها شمس الحقيقة اسألى أباك . . أنا أعرف . . الكذب والنفاق لا يقيمان دولة، ولا يحميان سلطة . . يجب أن تؤمنى بذلك» .

صمتت فاطمة برهة، ثم قالت:

- «أليس عجباً يا أبتى أن يتبع ملايين البشر تلك الدعاوى الإلحادية الهدامة، إنه أمر مخيف» .

ابتسم حاجى محمد فى ثقة، وقال:

- «لكل مجتمع طبيعته . . انحرف الدين وأفلس فى تلك الأصقاع فكان البديل ما ترينه من انحراف . . كانت

الشعوب تحلم باليقين والسلام والجنة . . فجاء الغزاة بسيوفهم ونيرانهم وعضفهم ليحملوا الناس إلى جنتهم الموعودة . . أصبح الناس هناك مغلوبين على أمرهم . . وإلا لماذا حمامات الدم، وحركات التطهير . . وآلاف السجون . . سعادة الشعوب يا فتاتي لا تقاس بصنع صاروخ جبار، أو سفينة فضاء تحوم حول القمر . . السعادة شيء آخر . . تبدو في رضى القلب، وابتسامة صادقة على الشفاه، وأمن يوشح الضمائر . . وحرية ترفرف أعلامها . . سعادة الفرد هي مقياس أية حضارة . . ما قيمة الحضارة أو المدنية يا فتاتي إذا لم تنعكس على الناس كأفراد - بما يسعدهم ويجلب لهم الهناء والأمن والثقة» .

وصمت أبوها لحظة، وكم كانت دهشته حينما سمع فاطمة تقول:

- «أبتي» .

- «نعم» .

- «أريد أن أتزوج» .

- «تتزوجين؟؟» .
- «أعرف أنك قد أجلت هذا الأمر» .
- «وقد حان الوقت» .
- «ومن تنوين الزواج؟؟» .
- «أبو الحسن . . زميلى فى الكلية . . أنت تذكر أنه قد طلب يدى منك قبل ذلك» .
- هز الأب رأسه فى رضى ، وقال :
- «إنه من خيرة شباب «ماشومى» وقد كان شجاعاً وما زال . . وأبوه رجل طيب برغم فقره وأنا أرحب بذلك» .
- وسادت فترة صمت ، قال أبوها بعدها :
- «أرجو ألا تكون ظروف الحملة القاسية التى تعرضت لها فى الجامعة هى التى أرغمتك على الزواج» .
- قالت فى صدق :
- «لا شك أن لها دخلاً فى ذلك» .
- «يجب أن تدركى أن للزواج اعتبارات أخرى» .
-

- «أعرف» .

- «أعنى أن» .

- «لقد فكرت في الأمر جيداً . . إن عناصر الزواج

الناجح من شرعية وعاطفية متوفرة لدينا» .

- «حسناً . . فليوفقك الله» .

وحاجي محمد إدريس كان من قبل مؤيداً لزواج ابنته من «أبي الحسن» لكنه رضخ لمشيئتها حين أصرت على أن تكمل تعليمها أولاً، بل إن «أبا الحسن» نفسه لم يمانع في ذلك، ووجده أمراً معقولاً لها الحق كل الحق فيه .



كانت صورة الأوضاع المتردية في البلاد تشغل ذهن حاجي محمد، كما أن مأساة ابنته في الجامعة هي الأخرى تؤرقه وتثقل على قلبه بالألم والحزن العميق، إنه يختزن في قلبه ثورة عارمة ضد الأحوال السيئة التي يلمسها في الشوارع والنوادي والصحف والمصالح الحكومية، والمنظمات الحزبية، وكان يفكر في كل ذلك وهو يجلس في

أحد مساجد «جاكرتا» استعداداً لصلاة الجمعة . . وفجأة وثبت إلى رأسه فكرة رائعة «الساكت عن الحق شيطان أخرس»، أخذت هذه العبارة ترن في رأسه . . يتردد صداها في أروقة نفسه . . تطن أذنيه . . خيل إليه أن الجالسين حوله يرددونها في قوة . . وأن الكلمات المقدسة تجسدت في عديد من الصور تزحم خياله وفكره . . جرت الدماء ساخنة في عروقه . . كان جسده يرتجف لم يعد غير مواكب الصمت الحزينة المرغمة وهتافات الغوغائيين الداعرة، وانحناءات النفاق، وترديد الشعارات التافهة الأحرار خلف الأسوار، وكلمة الحق تداس وتسحق، والأبرياء يلوثون ويضطهدون، ورئيس الدولة ينعم في فردوس صنعته له جهود التعساء المقهورين، ومستوردو الثقافات والقيم المستعارة يمسكون بمقاليد الأمور . . الصمت خيانة يا حاجي محمد الكذب خيانة . . الاستسلام كبيرة من الكبائر . . والخوف لا يحرر شعباً يا حاج محمد، والعمر والرزق بيد الله والعلم مسئولية كبرى، لم يعلمنا الله العلم لنغلق عليه الصدور بأقفال من الخوف والتردد والجبن . . بل لنطلقه

كالأضواء الكاشفة . . وهب حاجي محمد من مكانه . .
وقصد تَوّاً إلى حيث يجلس خطيب المسجد، وهو صديق
حميم له، وقال فى هدوء والعرق يندى جبينه:

- «أسمح لى بأن أخطب الجمعة اليوم؟» .

قال خطيب المسجد فى رضى:

- «بكل تأكيد . . فأنت أذى وأستاذى» .

يا له من يوم . .

كان يتكلم من قلبه . .

وكانت لكلماته صدى مهولاً فى النفوس هكذا . . ما
خرج من القلب وصل إلى القلب، سادت المسجد ضجة
كبرى، الصدق هو المجد، شعر حاجي محمد بسعدة فائقة،
خيل إليه أن أثقال الشيخوخة تتساقط، وأنه يشعر ببديب
الشباب يسرى فى أوصاله . . حتى لكأنه فى سن الثلاثين . .
أدرك لأول مرة أن القوة الحقيقية هى قوة الروح والقلب
والفكر . . هى لا تشيخ أبداً . .

وفى اليوم التالى نشرت إحدى الصحف الإسلامية الضيقة الانتشار ما حدث فى المسجد، وقدمت تلخيصاً غير مُخل لخطبة حاجى محمد إدريس، وأخذ الناس يتناقلون ما جرى، بعض النيام يستيقظون والناس يتحدثون حديثاً عجب، وحاجى محمد بيتسم «الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة.. ليس المهم الانفعال وترديد الكلام الطيب.. المهم العمل.. وحده هو أداة التغيير الفعلية.. لا بديل للعمل المنظم.. فكثير من الكلمات الطيبة تذهب مع الريح».. كان حاجى محمد بعد هذه الخطبة يجلس فى حجرته وحيداً يفكر، ثم يجد نفسه بالرغم منه يصيح وكأنه واقف على منبر «أيها الناس تحرروا من الخوف.. أيها الناس تعلموا أصول دينكم عندئذ تتصاغر أمامه كافة الفلسفات المستعارة.. كلمات الله أقوى الكلمات.. لأنها الصدق الأزلى.. العراة لا يتزينون بأى زيٍّ برغم فقرهم.. إنهم يحافظون على زيهم القومى ولو كان مرقعاً.. لو لبس متسول بدلة سهرات لاجتلب على نفسه الهزء والسخرية.. نحن لا نستسيغ طعم الخنازير، ولا نبى بعد محمد.. وابن الخطاب عاش زاهداً متقشفاً يكفيه ما يكفى أقل فرد فى الرعية.. الملايين لا

تبحث عن فلسفة جديدة بل تبحث عن رجل يعرف نفسه
ويعرف شعبه . . تبحث عن رجل كعمر» .



وفى اليوم التالى وقفت فاطمة فى قاعة المحاضرات
تصرخ متحدية الكذب والشائعات ، وتنعى موت الضمائر
وخسة القيم ، وتنادى بالحرية الحقيقة وبالصدق . . وتعلن
أن «حديث الإفك» لن يغير من منهجها أو خطتها . .

وتبعها أبو الحسن ليقول : «إن الخداع والإرهاب لن
يدوما إلى الأبد ، وأن الجزر الخضراء سوف تحطم التيارات
الغريبة وتحافظ على أصالتها وتراثها» .

وأخذ الناس يتساءلون عن مصير «حاجى محمد إدريس»
الذى سافر فى جولة تفتيشية على المدارس التى يشرف
عليها ، وقد مضى عليه أسبوع دون أن يعود إلى بيته . .

قالت قاطمة :

- «إن أبى يكتفى بالتفتيش على المدارس ، فقد قرر أن
يقوم بجولة توعية فى أنحاء الجزر . . وسيعود بعد فترة» .

أما «أبو الحسن» فقد تناوبته الشكوك وعزم على الذهاب للبحث عن «حاجي محمد إداريس»، واللحاق به أينما كان . .

قال أبو الحسن لفاطمة، وهما خارجان من الجامعة:

- «سأرحل غداً» .

- «رافقتك السلامة» .

طأطأت رأسها بعد أن نظرت إليه في امتنان:

- «وبالطبع لن يتم زواجنا قبل العودة مع أبيك» .

- «أجل» .

- «أنا الذي أطلب التأجيل هذه المرة . . واحدة

بواحدة» .

ضحكت واحمر وجهها خجلاً . .

وبعد بضع خطوات ضحكت، وقالت:

- «لا تتأخر وإلا» .

- «ماذا؟؟» .

- «قد يحاول الزعيم اختطافي كفارس أحرق . . .» .

بان الكدر في عينيه ، وغمغم :

- «هم لا يعرفون قداسة لشيء . . أنه لا يؤمن بغير العبث . . كان يريد السيطرة عليك بأية وسيلة . أتظنين أنه كان جاداً؟؟» .

قالت في شيء من الغضب :

- «هو وزير . . ولكنه أتفه من أن أفكر فيه . .» .

- «كان يريد قتلك بأية طريقة . . الزواج إحدى وسائله . .» .

- «ولم آخذ الأمر مأخذ الجد . .» .

- «أجل . . كان يمزح . . ترى كم مرة قال مثل هذا الكلام لفتيات أخريات؟؟» .

تنهدت فاطمة ، وقالت :

- «لشد ما أنا قلقة على أبي !! احذريا أبا الحسن . .
فالطريق وعر . . المكائد مزروعة في كل مكان . . لا

يخدعك مظهر الزهور الجميلة فى جزرنا الحبيبة . .
فالحشرات السامة تملأ الغابات . . وتختفى تحت أوراق
الورود الندية . . « .

قال أبو الحسن بصوت يخالطه الانفعال :

- «سيضىء وجهك المؤمن ظلام الطريق لى وسيظل
يسير إلى جوارى طول تجوالى . . قلبانا يسيران معاً . .
يترنمان بأنشودة صوفية رائعة . . ما أعظم الحب فى الله» .

تبللت أهدابها بالدموع ، وغشيتها موجة عارم من
السعادة ، وهمست فى ارتجاف :

- «سأنتظرك حتى تعود . . .» .

أخرج مصحفاً صغيراً من جيبه ، ومده إليها وهو يقول :

- «هدية السماء . . نعم الصاحب . . سيملاً عليك
حياتك . . وعندما أعود سنبدأ فى قراءته معاً مرة
أخرى . . .» .

تناولت كتاب الله وقبلته . . ثم ضمته على صدرها ،
وانصرفت وقد ازداد تدفق دموعها . .

الفصل الخامس

هناك ظاهرة غريبة وجد حاجى محمد نفسه غير قادر على تفسيرها التفسير السريع الواضح ، تلك الظاهرة فى الفظاظة والقسوة والوحشية العجيبة التى يتصف بها بعض المثقفين ، قد يكون لآكلى لحرم البشر عذر فيما يفعلون؛ وذلك لأنهم جهلة متخلفون لم يشرق نور الإيمان الحق فى نفوسهم ، فهم يعيشون عيشة أقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان ، أما الإنسان المثقف الذى بلغ شأواً فى العلم والفلسفة ونال قسطاً من المدنية والتحضر ، كيف يكون بعد ذلك أفضع من آكلى لحوم البشر . . ؟!

فما كاد حاجى محمد إدريس ينتهى من جولته التفتيشية حتى نزل شاطئ إحدى الجزر البعيد قليلاً عن «جاكرتا» ، مزماً أن يركب سفينة تنقله إلى الشاطئ الآخر ، لقد وجد

أحد البحارة يبتسم له ويرشده إلى السفينة مبحرة بعد قليل إلى غايته، وما أن ركب السفينة حتى أخرج مصحفًا صغيراً، وأخذ يقرأ فيه كانت الشمس تبعث بأشعتها وحرارتها وكان البحر مضطرباً بعض الشيء، وعشرات السفن تمخر العباب، بعضها يكتظ بالبشر والبعض الآخر ينوء بالمحاصيل الزراعية والبضائع، وهناك سفن تخفق فوقها رايات رسم عليها الصليب يبدو فيها الرهبان والقساوسة من بعيد، وسفن أخرى بها بعض طلبة المدارس يغنون ويمرحون، لكن حاجي محمد لاحظ أن السفينة التي يركب فيها بها عدد قليل من المسافرين برغم كبر حجمها، ترى لماذا لم تمتلئ كالعادة بالمسافرين؟؟ لا يهم . . إن ما يفكر فيه هو أن يبلغ منزله بأقصى سرعة . . ورأى أغلب المسافرين صامتين، بعضهم يقرأ في صحيفة وآخرين يتصفحون مجلة وكتاباً، حتى طاقم السفينة من الرجال يبدو عليهم النشاط وقوة البنية وكأنهم جنود من سلاح البحرية، لا يهم . . المهم أن يبلغ منزله . . واقترب منه أحد البحارة وقال :

- «حاجى . . أظن أنه لا مانع لديك من أن نعرج على إحدى الجزر المتطرفة بعض الشيء . . هناك بعض البضائع والرجال على موعد معنا . . لا شك أن هذا قد يسبب لك تأخرًا ساعتين أو ثلاثة . . لكن لا حيلة لنا فى الأمر . .»

- «هذا هو خط السير . .»

هز «حاجى محمد» رأسه فى شىء من عدم الرضى وتمتم:

- «لا حيلة لنا . . المهم أن نبلغ جاكرتا فى الوقت المناسب . .»

طال الطريق، ومالت الشمس ناحية الغرب، وأدرك «حاجى محمد» أن السفينة تتجه صوب الجزيرة الوسطى معنى ذلك أن التأخير لن يكون ساعتين أو ثلاثة . . بل قد يحط الليل وهم فى الطريق . .

واستبد به الضيق وقال مزمرًا:

- «هذا تصرف غريب منكم . . كان يجب أن أعرف الوجهة الصحيحة قبل أن تبجروا . .»

رد أحد الركاب قائلاً:

- «كف عن الحديث لأنه لا معنى لاعتراضك . .» .

- «وما شأنك أنت؟؟» .

نحى المسافر الصحيفة التي في يده جانباً، وقال ساخراً:

- «م تخاف؟؟ السمك في البحر . . ولدينا كمية كافية

من الطعام . . والضرب في أعماق البحار متعة فريدة . .» .

قال حاجي محمد:

- «هذا شأنك . . أما أنا فكان يجب أن أعود في الوقت

المناسب . .» .

- «قائد السفينة هو الذي يختار خط السير . . وللرياح

أحكام . .» .

تململ حاجي محمد في قلق، وخفق قلبه بشدة، إنه لا

يشعر بالاطمئنان، تلك حقيقة لا يمكن إنكارها، ومع ذلك

فقد عاد يقرأ في كتاب الله، واقتربت من الاتجاه المقابل

سفيتتان، كانت الشمس توشك على المغيب . . وقرر
حاجى محمد أمراً، وصاح بالبحارة:

- «لقد عزمت على ترك سفيتكم . .» .

قال قائد السفينة ضاحكاً:

- «كيف؟؟ هل تثب إلى الماء؟» .

- «بل سأدفع لكم ما تشاءون ثم أهتف بإحدى السفيتين

القادمتين كي ألحق بها» .

- «إنهما يسيران وجهة غير وجهتك . .» .

- «ليكن . . توقف . . وأعط الإشارة . .» .

- «حسنًا . . أين المال؟؟» .

- وضع حاجى محمد يده فى جيبه، وأخرج حافظة

النقود، لكن لكمة قوية نزلت على فكه، فألقت به جانباً،

وحاول لدهشته أن ينظر ما جرى، لكن عصا غليظة هوت

على رأسه أفقدته الوعي، وسرعان ما كمنوا فاه، وربطوا

يديه من الخلف، وقيدوا رجليه . . ثم جروه جراً إلى الغرفة

السفلى أسفل السفينة .

قال أحد الرجال :

- «يجب أن نصل به قبل منتصف الليل . . سيكون الناس نياماً ، وسيكون في انتظارنا شرطة المدينة هم يعرفون ما يجب عمله . .» .

ورد آخر :

- «لم كل هذا العناء؟؟ ألم يكن في الإمكان أن نرمى به في أى سجن من السجون؟» .

قال الرجل الأول :

- «الأوامر هي الأوامر ، ثم إن المكان الذى نقصده به طائفة من أعضاء الحزب ، والكولونيل رتب كل شىء . . إن المكان الذى نريده لن يستطيع أخذ أن يستجيب لحاجى محمد فيه . . كلهم رجالنا وسيصدرون أمراً بسجنه بطريقة ما . . ولن يعرف أحد عنه شيئاً . .» .

رد آخر قائلاً :

- «كان بالإمكان أن نخنقه ، ونلقى به فى البحر . . أو نطلق عليه الرصاصة . . كل هذا التعب لرجل تافه؟؟ . .» .

- «نحن ننفذ الأوامر فحسب . . لا شك أن للحزب وجهة نظر في الاحتفاظ به حياً . .» .

وفي الحجرة السفلى أفاق حاجي محمد بعد وقت ليس بالطويل ، حاول أن يحرك يديه أو رجله فلم يستطع ، أراد أن يتكلم فاحتسبت الكلمات خلف الرباط المحكم . . أخذ يزمجر حتى احتقن وجهه ، كان الظلام يعم المكان فوق السفينة وعلى أمواج البحر الصاخب . . وكانت الغرفة شمعة صغيرة استطاع حاجي أن يرى على ضوءها رجلين يحملان السلاح ، كان الرجلان يرمقانه في شماتة وقحة ، وقال الأول:

- «يبدو أن محمد يريد التحدث إلينا . .» .

- « لا شك . . لكنني أمقت سفسفتته ، سيحدثنا عن السماء . . والعدالة ، والإخوة ، وعن الله ، وأنا لا أطيق مثل هذه الكلمات . .» .

ومع ذلك فقد قدم الأول ، ونحى الرباط المحكم من فوق فم الحاجي الذي اندفع قائلاً:

- «ما معنى ذلك؟» .

ضحك قائلاً:

- «معناه أنك أسير لدينا . .» .

- «هل أنتم عصابة؟؟ ليس معى ما يغرى من المال . . ثم كيف تنتهكون حرمة شيخوختى وأنا مثل أبيكم . .» .

قهقهه الرجلان، وقال الأول:

- «أنا ضابط بالقاعدة الجوية ورفيقى مهندس كهرباء . .» .

قال حاجى محمد:

- «متعلمون أنتم إذن . .» .

أدركا ما يرمى إليه من توبيخ، فقال الأول:

- «لكننا ثوريون . .» .

- «وما شأنى بذلك كله . .» .

- «أنت تؤجج ثورة مضادة . .» .

- «أننى لا أصدق ما تسمعه أذناى . .» .

قال الضابط:

- «هل فى إمكان أية قوة أن تنقذك؟؟» .

- «كل شىء بيد الله . . .» .

قال لمهندس الكهرباء فى غضب:

- «أفكار العصر الحجرى تتسلط على ذهنه . . .» .

ثم تقدم المهندس منه وأمسك بخصلة من لحيته البيضاء
بآلة حديدية وانتزع الشعر بقسوة، فاهتزت رأس الحاجى
الذى صدر عنه تأوه على الرغم منه . . ثم تتم:

- «يا أبناء الوطن . . أنا لم أسئ إليكم . . .» .

فرد المهندس:

- «مريض واحد بالكوليرا يستطيع أن ينشر الوباء بين
الملايين هذا منطلق العلم يا حاجى محمد . . .» .

قال حاجى محمد، وقد استبد به الضيق:

- «ما الذى يبرر أفعالكم الوحشية هذه؟؟» .

- «هل أنتم سلطة للدولة؟؟ ولو افترضنا أنى متهم
أهكذا يعامل المتهم؟؟» .

ودس مهندس الكهرباء يده فى جيبه ، ثم أخرج منشوراً
حزيباً ، وأخذ يقرأ بصوت عال :

- « . . إن كل من لا يؤيد حركتنا ، ولا يساعدنا هو
رجعى أثيم والحل الوحيد لأمثال هؤلاء هو إبادتهم . . » .

- «الديانات مصيرها الزوال ، والعقائد والتقاليد القديمة
فى طريقها إلى الاضمحلال ، والذين يقصدسون الأديان
ويتشبثون بأذيالها ليسوا إلا ذوى العاهات ، أو الفاشلين فى
حياتهم والمنحرفين من البشر . . لقد عرفنا حقيقة المسلمين ،
فلا تخافوهم ، ولا يخيفنكم الإسلام ، إن المسلمين مثلهم
كمثل السراب ، تراهم من بُعد كثرة تحبسهم بها قوة ،
ولكنك عندما تكشف حقيقتهم تجدها عكس ذلك إنهم
متفرون ، مختلفون ، ممزقون ، مزقتهم أهواؤهم ، ومزقتهم
مفاهيمهم الدينية المتضاربة . . والفوز والنصر لنا . . » .

وأمسك المهندس بالمنشور وأخذ يمسح به وجه الشيخ
ويحكه فى عينيه . . وهتف :

- «إنكم أيها المتدينون لن تروا الحقيقة أبداً . . » .

تمت حاجى محمد وجسده يرتجف :

- «المؤمن يرى الله بنور الله . . .» .

قال المهندس :

- «والثورى يرى بنور عينيه . . الرؤية الوحيدة

الصحيحة الممكنة فى عالم الواقع . . .» .

قال حاجى محمد :

- «ومن الذى خلق عينيك ونورهما وخلق الواقع . . .» .

- «الطبيعة الخالقة» .

- «وما هى الطبيعة الخالقة . . ؟» .

- «هذه الدنيا الكبيرة بكل ما فيها . . .» .

- «لكنها مخلوقة . . فمن خلقها؟؟» .

- «هى خلقت نفسها . . .» .

- «أليس هذا قولاً مضحكاً . . يشبه إلى حد كبير قولك

إنك ولدت من بطن أمك مهندساً . . .» .

أمسك آله الحديدية، وقبض على شعر كثيف فى لحية

الشيخ ونزعها فى عنف، وهو يهتف :

- «يا لسخافة أفكاركم!!» .

قال حاجى محمد وهو يتألم :

- «أهذا هو أسلوب متمدين للنقاش . . .» .

- «لا أرى للعضن الرجعى . . .» .

ثم سدّد قبضة قوية إلى فك الحاجى مرة ثانية ، وهو يقول :

- «لا أريد أن أسمع هذا الصوت القذر . . .» .

الليل حالك السواد ، والسفينة ترسو على شاطئ مهجور صامت ، ولدى الشاطئ وقفت عربة «جيب» ، وحمل حاجى محمد إليها حملاً ، ثم قُذِفَ به فيها ودار المحرك ، وانطلقت عبر الظلام إلى سجن يقع بعيداً منعزلاً خارج المدينة . . . ووجد حاجى محمد نفسه أخيراً فى حجرة ضيقة قدرة ، كان مربوط العينين ، ولم يكن ألمه إلا لأنهم انتزعوا منه المصحف قبل إدخاله إلى زنزانه . . .



الفصل السادس

الساعات تمر بطيئة ثقيلة ، ككابوس مزعج يتمنى صاحبه أن يفيق منه ، وأشياء مريبة تحدث فى الزنازين المجاورة ، لا يستطيع حاجى محمد إدريس أن يراها الغموض من حوله يجسم الأوهام ، ويضخم الأحزان ، إنه يسمع أصوات استغاثة ولا مغيث ، وصراخ رجال يجأرون بالشكوى ، غير أن أنينهم يختلط بالسخریات والضحكات العابثة ، كل شىء يمضى بطريقة مذهلة لا يمكن تفسيرها ، والليل يبدو كمغارة سوداء تكتظ بالأهوال والرعب والآلام والصراخ . .
أهذه هى بلادنا الحبيبة؟؟ مستحيل يا بلدى الحبيب . . لن تكون كذلك . . إن ما أراه حالة شاذة بالتأكيد . . كنوبات الهستيريا التى تصيب مرضى العقول والنفوس . . وكيف يقرب النوم جفون المعذبين؟؟ هنا لا شك حكومة سرية غير

الحكومة التي يعرفها الناس ، والسلطة الحقيقية مختفية خلف ستار من البلاهة والزيف . .

هذا ما كان حاجي محمد يحدث به نفسه . . وتحسس الجدران الصلبة . . والأرض الباردة . . فلم يجد شيئاً على الإطلاق . . لا ماء ولا طعام . . إنه يشعر بالظماً ، وتذكر الكلمات التي كان يسبح بها «ذا النون» وهو في بطن الحوت كما ورد في القرآن، وأخذ حاجي محمد يردد كلمات «ذا النون» ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧] أخذ يسبح بها آلاف المرات . . آه . . لا شك أن أسرته في جاكرتا اللاهية العابثة تبحث عنه الآن ، وتساءل المسافرين عن رجل لم يعد . . وسيظلون يسألون حتى يرهقهم السؤال ويضنيهم البحث ، فيكظمون أساهم ، ويلجأون إلى الدموع . . ولا شك أن فاطمة المسكينة قد عافت الأكل والنوم . . . وستهول إلى مركز الشرطة ، وتقدم بلاغاً عن اختفاء أبيها ، وسيكتفى الضابط بإرسال نشرة تبين أوصاف المفقود ، وتضع صورته عليها ، بعد أن يتقاضى ثمن النشرة ، وقد تتكرم إحدى الصحف الإسلامية الصغيرة

بنشر نبأ اختفائه فى زاوية صغيرة من زواياها . . إن حاجى محمد يعانى آلاماً مرة فى هذا السجن الغريب ، وهو يسمع آيات المستغيثين فتزداد آلامه ، وقبيل الفجر يفتح الباب ويعاد إحكام ربط عينيه ، ثم يساق حاجى محمد خارج الزنزانة ، الهواء بارد رطب . . وهدير البحر ينبعث كغضبة مكبوتة . . ويجره السجنان جرّاً عنيفاً حتى يكاد ينكفى . . أحياناً يجره من يده . . أو يدفعه فى ظهره . . أو يسحبه من أذنه . . معاملة مهينة ، وهو صامت يمضى فى طريقه يتعثر . . لا يدرى هل ستقع قدمه فى حفرة ، أو يصطدم وجهه بجدار . . أنه يحاول أن يرى بأذنيه . . يتسمع الهمسات ووقع الأقدام ويحاول أن يفهم . . وفجأة يشعر بركلة قوية تقذفه على وجهه . . ويهتف فى وهن :

- «الرحمة . .» .

لكن سوطاً يهوى على رأسه وجسده ، لم يعد حاجى محمد يشعر بالآلام جسدية . . جلده أصبح كالمخدر . . لو قطعوا ذراعاه أو شقوا بطنه بسكين لما شعر بالآلام تذكر . . هنا

تصبح الحياة تافهة لا قيمة لها . . لحظات يبدو فيها الأمل فى
النجاة صفرًا . .

وسمع صوتًا أجش يقول :

- «ارفعوا العصا بة عن عينيه . .» .

نظر فرأى مهندس الكهرباء ، وضابط قاعدة الطيران
وثالثًا يبدو أنه قائد السجن ، كان الأولان منكبين على طعام
يزردانه فى شراهة ، وأمامهما زجاجة كاملة من الويسكى ،
وقال قائد السجن وهو يجلس على مكتب أنيق ، تعلوه
صورة الرئيس :

- «ليس لدينا وقت . .» .

لم يجب حاجى محمد ، بينما استطرد القائد الأسمر :

- «إن استجوابك معناه إننا نريد الإبقاء على حياتك» .

- «لم أرتكب جرماً» .

قال القائد فى ضيق :

- «هل أنت من جماعة «ماشومى الإسلامية؟» .

- «يا ولدى جماعة ماشومي يتبعها الملايين فى أنحاء البلاد . . .» .

- «أفهم من ذلك أنك ترد بالإيجاب؟» .

- «نعم . . أنا أحد أعضائها . . .» .

- «حسنًا . . نريد أن نعرف شيئًا عن نشاطكم السرى، وما تحوزونه من سلاح . . تكلم يا حاجى محمد . . .» .

قال حاجى محمد، وقد تبللت عيناه بالدموع:

- «لم أحمل السلاح منذ حربنا مع الهولنديين . . .» .

قال القائد ساخرًا:

- «تريد أن توهمنا أنك كنت أحد المجاهدين الأبطال . . .» .

- «الحقيقة أننى كنت كذلك قبل أن يتقدم بى العمر، والسجلات تشهد به . . ولدى وسام من الحكومة . . ولى مواقف مشهودة» .

هب الضابط واقفًا، ثم صفع حاجى محمد قائلًا:

- «هذا لا ينفى أنك رجعي خطير . . .» .

دارت رأس حاجي محمد وهتف :

- «ما معني رجعي؟؟» .

اقترب منه ، وقال :

- «رجعي يعني متخلف . . ضد التطور . . يعني ثورة مضادة . . . أو عميل الإمبريالية والاستعمار . . ألا تقرأ الصحف؟» .

- «ليس بي شيء من هذا كله . . فأنا رجل أحب العلم والتقدم ، وأريد لبلدي الحرية والعدل . . والمواطنون جميعاً إخوة . . في ظل شريعة الله . .» .

صرخ قائد السجن قائلاً :

- «قف . .» .

- «تلك هي الحقيقة . .» .

- «كذبت . .» .

- «وليس لي أو لجماعة «ماشومي» أي نشاط سرى . . ولبس في منزلي قطعة واحدة من السلاح . .» .

- «كذبت . . .» .
- «أثبتوا غير ذلك . . .» .
- «أتنكر أنك تهاجمنا فى الشارع . . . ومن فوق
المنابر . . .» .
- «ومن أنتم؟ الحكومة؟؟» .
- «نحن أكبر من ذلك . . . نحن قوى الشعب الحقيقية
الممثلة لإرادة الجماهير . . .» .
- قال حاجى محمد فى توسل :
- «يا ولدى الأمور لا تسير هكذا . . . أريد أن تحاسبنى فى
قانون معروف يظهر لى وما علىّ وأريد أن يكون لى الكفالة
التي ينص عليها الدستور . . . لأنه كما يبدو لا توجد تهمة
ذات قيمة موجهة إلىّ . . .» .
- كز القائد على أسنانه :
- «أيها الحيوان المنقرض لم تلوكون هذه العبارات التي
لا مدلول لها؟؟» .
- «خسأت . . .» .
-

غامت عينا حاجى محمد إدريس بالدموع ، وقال :
- «عن رب العزة قول رسول الله ﷺ : «يا عبادى .. إنى
حرمكت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً .. فلا
تظالموا..» .

قهقهه الرجال الثلاثة ، وقال مهندس الكهرباء :
- «أيها العالم المتدين .. أتعرف شيئاً عن قانون
الصراع؟؟» .

- «أعرف أن صراع الحق والباطل دائم ما دامت الحياة . .» .
- «وما نتيجة هذا الصراع؟؟» .

- يقول الله فى كتابه : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا
يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] .

- «وأنت؟؟ زيد .. أم نفع ..؟؟» .
- «أنا أحمل الكلمة الطيبة ، وأحب الناس .. ولا أؤذى
أحدًا إلا الحشرات الضارة . .» .

وسادت فترة صمت قال حاجى محمد بعدها :

- «أشعر بالظماً . . .» .

قال ضابط القاعدة:

- «ستشرب من ماء زمزم . . .» .

تذكر حاجي محمد يوم أن ذهب إلى مكة، مئات الألوفا يتدافعون إلى الحرم الآمن . . إلى الكعبة . . والحمام يطير، والأكف تضرع إلى السماء . . والناس من كل لون وجنس . . والابتهالات والتكبيرات تشق عنان السماء . . يا لها من لحظات خالد شجية . . نسي حاجي محمد نفسه . . نسي الرجال الثلاثة . . والسوط . . وآلة انتزاع الشعر . . نسي كلمات المحقق الجوفاء . . خيل إليه أنه قابع عند «مقام إبراهيم» والحشود تطوف حول الكعبة . . والسقاة يأتون بالماء العذب من زمزم . . وخيل إليه أنه تناول إبريقاً وأخذ يشرب . . ويشرب حتى ارتوى، ودون أن يشعر أخذ يردد «لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك . .» .

وقف قائد السجن، وأمسك بكتف حاجي محمد وصاح به:

- «لم لا تجيب؟ ماذا تقول؟ هل جنت؟» .

أفاق حاجي من شروده، وقال:

- «البقاء لله وحده» .

قال مهندس الكهرباء وكان قبل ذلك قد رفع العصاة

عن عيني الشيخ:

- «هل رأيت الله؟؟» .

قال حاجي محمد في ثقة:

- «نعم رأيتة . . .» .

- «رأيتة في بديع خلقه، وفي تنسيق ملكه، وفي عظيم

سننه التي تسيّر الكون، وتحرك الأفلاك، وتنظم البحار

والرياح، وكل شيء يدل عليه سبحانه . . .» .

فهقه المهندس قائلاً:

- «كلمات بلا معنى . . .» .

سدد إليه حاجي محمد نظرات ثابتة، وقال:

- «أنت أيضاً رأيت الله . . .» .

وقف مهندس الكهرباء ، وقال :

- «متى؟؟» .

- «ما هو تيار الكهرباء الذى يسير فى الإسلاك . . .» .

- «أنت لم تخلق التيار ، ولكنك اكتشفته واستفدت

منه . . .» .

- «اكتشفت شيئاً كان موجوداً أو مخلوقاً منذ

الأزل . . .» .

- «لكنى لم أر الله . . .» .

- «لأنك أعمى . . .» .

أمطرت السماء ورعدت ، واكفهر وجه الرجال الثلاثة ، قام

قائد السجن ، وأحضر قلماً وأوراقاً ، وقال حاجى محمد :

- «خذ هذه الأوراق والقلم . . نريد منك أن تكتب قصة

حياتك السياسية والدينية من البداية للنهاية . . لا تهمل أى

شئ مهمما كان تافهاً . . .» .

أمسك الورق بيد مرتجفة ، وقال :

- «صدقوني يا أبنائي . . إن أمركم لجد عجيب . . وأنا لا أفهم مبرراً لكل ما يحدث . .» .

- «يجب أن تنفذ ما تؤمر به وإلا دفعت حياتك . .» .

- «أنا لا أخاف الموت . .» .

- «لا يهم . . ستمل الحياة أكثر وأكثر ما دمت هنا . .» .

ثم التفت قائد السجن يمينا ويساراً، وقال وهو يشير بسوطه:

- «هذا المكان يعجج بالآلاف من إخوانك أعضاء (ماشومي) ثم التفت إلى السجناء قائلاً:

- «اعصبوا عينيه وخذوه إلى زنزانه . . وأضيئوا له شمعة، وما أن انصرف حاجي محمد حتى التفت قائد السجن إلى رفيق، وقال:

- «أبلغوا الزعيم أن الأمور تسير على ما يرام . . وسنوافيه باعترافات الرجل في خلال ثلاثة أيام . . وسنبقى على حياته كما أمر . .» .



الفصل السابع

وجاكرتا مدينة عجيبة، فيها القصور الفخمة ذات السجاجيد العجيبة الغالية الثمن، والثريات المذهلة والنسق الهندسى الرائع، تحوطها الحدائق الجميلة ذات الأزهار والثمار، وفيها أيضاً الأحياء الفقيرة تفوح منها رائحة القذارة والمرض والفقير، والأطفال العراة الحفاة، والنسوة يجدون عملاً فيتسكعون فى الشوارع يشاركون الكلاب فى فرز القمامات، وفى جاكرتا أحزاب عدة تتصارع على السلطة، وتتسابق إلى أصوات الناخبين التعساء، وفيها الجماعات التبشيرية النشطة التى تملك المدارس والمستشفيات والأرز والدقيق والمال والكتب، تتحرك فى حرية تامة، وتصدر النشرات المملوغة بالافتراءات الدينية، والأكاذيب التاريخية، وتقيم احتفالات التنصير علانية، وتوزع

المعونات الغذائية والكساء على من تشاء لمن يناصرونها أو يعتنقون المسيحية، وفي جاكترتا أحياء شامخة شوارعها تلمع كالمرآة المجلوة، وفيها الأماكن الممتلئة بالأوحوال والقاذورات والكلاب والققط الميتة.

عادت فاطمة من الجامعة شاحبة الوجه، شاردة النظرات، متعبة أن أباه لم يعد، وكذلك فتاها أبو الحسن لم يظهر له أثر، ودخلت فاطمة إلى البيت، ها هي أمها تجلس كايبة حزينة يطل من نظراتها الرعب والأسى، وها هم أخوتها وأخواتها الخمسة يطبق عليهم الصمت والأسف، وتلك مكتبة أبيها تتراص فيها الكتب والمجلات باردة غير عابثة بشيء وتلك السجاجيد الرخيصة المتأكلة على الأرض، وعلى الحائط الباهت تقويم بالسنين والشهور والأيام وإلى جواره القرآن الكريم كله في صفحة واحدة في برواز خشبي أحمر يغطيها زجاج مترب، وفي الجانب الآخر خريطة لفلسطين قبل التقسيم قالت فاطمة في اكتتاب:

- «هذه بلاد لا يأمن فيها المرء على نفسه . . .».

قالت أمها:

- «وما ذنب البلاد؟؟ الذنب ذنب أهلها» .

- «لا معنى للوطن بلا أمن أو حرية . . .» .

- «هو كذلك . . .» .

قالت فاطمة وهي تعبت بضعفيرة شعرها في توتر:

- «لم لا نرحل عن هذه الأرض؟» .

- «لكنها أرضنا يا فتاتي . . عاش أجدادنا فيها من

قرون . . .» .

- «لم يعد للحياة معنى هنا . . .» .

- «وأين نذهب يا ابنتي؟؟» .

- «بلاد الله واسعة . . .» .

تنهدت أمها، وقالت:

- «استغفرى الله يا فاطمة، وقومى إلى الصلاة» .

تساقطت الدموع من عيني فاطمة، وقالت والدموع تملأ

عينها:

- «لشد ما أحب بلادى يا أمى . . لكن أبى و . . لم يعودا . . أصبحت أضيع ذرعاً بكل ما أراه فى الشارع والخوانيت والجامعة . . نحن أشد الناس تعاسة . . الحاكم لا يحمى أحداً، والشرطة لا توفر الأمن ولا كرامة لأحد . .» .

ربتت أمها على ظهرها فى حنان وأخذت تبث فى قلبها الصبر والإيمان، وتروى لها كيف أن الدنيا هكذا، ليست حلوة المذاق دائماً، وليست مرة المذاق باستمرار، أيام كثيرة مرت كلها هنا وسعادة، وأيام أخرى كانت تطفح بالقلق والحزن، والإنسان بين اليسر والعسر، والغنى والفاقة، وأخذت أمها تروى ذكرياتها أيام الاستعمار الهولندى والمعارك الوحشية التى كان يخوضها ضد المواطنين العزل أو شبه العزل من السلاح، ثم كيف تخلت اليابان وطردت الهولنديين واحتلت البلاد، والحرب الضروس بين الهولنديين واليابانيين فى البر والبحر، وكيف كان الشعب يناضل كل الغزاة من أجل حريته واستقلاله، ثم كيف عادت هولندا بعد سنوات وطردت اليابانيين . . وكيف ابتدأت حرب التحرير الأخيرة، والتى اشترك أبوها فيها، وأخيراً قالت الأم:

- «ليس من العدل يا فتاتي أن يصدر حكماً على الأمور من خلال فترة قصيرة من الزمن، نحن نجتاز أحداثاً مؤقتة . . .»

قالت فاطمة :

- «هذا حق . . . لكن العملاء قد تمكنوا وأنشبوا أظافرهم في كل شيء . . . أصبحوا هم الحكومة الفعلية للبلاد . . . إنهم أخطر من الهولنديين واليابانيين مجتمعين . . . تلك هي الحقيقة التعسة . . .»

ثم أخذت فاطمة تجفف دموعها، وتقول :

- «ترى متى يعود أبي؟»

قالت الأم :

- «قلبي يحدثني بأنه سيعود قريباً . . . أذكر في حرب التحرير ضد الهولنديين أن أنباء أكيدة وصلتنا بأن أباك قد استشهد في معركة ضارية في «جاوا» الوسطى . . . تسعون في المائة من رجاله لقوا مصرعهم . . . وعاد أحدهم يحمل إلينا حقيبة الذكريات . . . مخلفات والدك الشهيد . . . وهي بعض

الملابس ومصحفاً . . ومفكرة صغيرة للمذكرات . . بكيت يوماً كثيراً وأنت كنت طفلة صغيرة . . وعلى الرغم من بكائي إلا أنني استقبلت نبأ استشهاده بالزغاريد . . كان شعار المعركة «الله أكبر» . . كان الشعب الحقيقي يحمل البنادق والمدافع والمدى يطارد الأعداء . . كان العملاء يكتبون المنشورات الجوفاء عن حقوق الطبقة . . أبوك يذكر كل ذلك . . ثم ماذا حدث؟؟ كنت أخذ كل مساء باقة من الزهور وأذهب بها إلى المقبرة الكبيرة . . لكن أباك عاد ذات مساء . . أجل . . لم أكن بالبيت . . كنت وقتئذ أترك المقابر فى طريقي إلى البيت، وفجأة وجدته أمامي، خيل إلى أنني فى حلم . . أهذا أنت يا محمد؟ فتحت ذراعى أهو لقاء فى الجنة؟ أم لم نزل على الأرض؟» .

نسيت فاطمة وهى تستمع لكلمات أمها، تخيلت المشهد بكل دقائقه، ابتسمت فاطمة فى سعادة، على الرغم من بقايا دموع تتعلق بأهدابها الجميلة . .

وتنهدت الأم ثانية، وقالت فى شجن:

- «هكذا عاد . .» .

وفى هذه اللحظات دق باب البيت ، وثبتت فاطمة من مكانها وجرت صوب الباب ومن حولها كل أفراد الأسرة ، تجمهروا متشوقين فى انتظار المجهول . .

كان «أبو الحسن» يقف بالباب مرهفًا مكدودًا . . «السلام عليكم» .

وردوا السلام فى وجوم ، وهمست فاطمة :

- «أين أبى؟» .

أطرق دون أن يعجب . .

- «تكلم . . هل أصابه مكروه؟» .

- «لا أدرى ماذا أقول» .

- «أخبرنا بالحقيقة . . لم يزل بنا بقية من إيمان» .

- «لم أعثر له على أثر . . قالوا إنه عاد إلى جاكرتا . .

وها هى جاكرتا السوق الكبير . .

لا نسمع فيها غير الدوى والضجيج وجنون المذيع . .

واختلاط أصوات الباعة . . ونباح الكلاب» .

قالت الأم فى وجوم:

- «ادخل يا بنى . . يجب أن تستريح وتشرب بعض الشاى الساخن» .

لم يعد «أبو الحسن» بشىء يذكر، لقد زار الأماكن التى ذهب إليها حاجى محمد وأخذ يتتبع خط سيره، حتى اللحظة التى ركب فيها حاجى محمد إحدى السفن الصغيرة، وبعدها انقطع الخيط، لم يعرف شيئاً عن صاحب السفينة ولا وجهتها . .

وكان واضحاً لدى الجميع أن وراء اختفاء الرجل تدبيراً سياسياً من نوع معين، فالخلافات السياسية فى الآونة الأخيرة قد اتخذت طابع العنف والقسوة، لم يكن حاجى محمد أول من اختطف، ولن يكون آخرهم، إن فى العاصمة وحدها أكثر من ألف مفقود بين قتيل وسجين، والظاهرة نفسها تكررت فى كثير من المدن، أصبحت أمراً مقلقاً لدرجة أن بعض الصحف تكلمت عنه، والبعض الآخر أورد قائمة بالمفقودين، وتحدث عن القضية أحد أعضاء المجلس الاستشارى الأعلى فى الدولة، بل زعم البعض أن أحد الجنرالات المعتدلين قد تكلم

شخصياً مع الرئيس ، ولم يكن لذلك من رد فعل لقضية
المفقودين أو المعتقلين حماية لأمن الدولة ومصحتها العليا ،
وما أكثر فلاسفة الانحراف فى تلك الآونة ، والبعض يقول إن
قضية أفراد قلائل لا تهتم ، ماذا لو ضحى الوطن بألف أو بضعة
آلاف من أجل مصلحة الملايين ، كل شىء يضطرب ويفقد
اتزانه ، وهذا ما كان يفكر فيه أبو الحسن وهو جالس زائغ
النظرات يجرع كوب الشاى الساخن .

- «لم أياس بعد» .

هذا ما قاله أبو الحسن ، دون أن يغمض جفنيه على
نظراته الشاردة . . ثم استطرد :

- «القسوة لا تلد إلا القسوة . . نعم . . والظلم يورث
الحقد ، ويا ويح شعبنا إذا ابتدأ نزيف الدم !! إننى كنت
أمضى فى الشارع أتفحص العيون والوجوه . . ماذا أرى؟؟
يا إلهى !! المأسى الثاقبة فى النظرات . . وعلى الملامح
قصص مهولة لأحزان طافحة» .

لم يتكلم أحد فى البيت ، كان الجميع صامتين يتخلل

صمتهم حيرة وغيظ مكبوت، ثم رفعت الأم كفيها إلى السماء، وتمتت:

- «لن نشكو إلا إليك أنت . . أنت رب المستضعفين» .

وعاد أبو الحسن يقول:

- «أشعر أن مصيرنا بيد غيرنا . . وأن أمتنا الكبيرة حقل للتجارب البشعة . . الزعماء كعرائس المسرح . . تحركها خيوط خفية . . في قصر الرئيس الليلة حفل راقص . . هذا ما قرأته في الصحف . . الرئيس لا يستحي ويتحدث عن زوجته الفاتنة قائلاً:

(إنني أحكم مائة مليون نسمة من شعبة، ولكنني لا أستطيع الاستيلاء عليك) . . هذا هو المضحك المبكى .

ثم وقف مكفهر الوجه، وقال في هياج:

- «إنه لشيء رهيب أن يقتل رجل من أجل فكرة» .

قالت فاطمة في ذعر:

- «هل قتلوه؟؟» .

- «اهدئي يا عزيزتي ، فأنا لم أقل ذلك . . أعنى أنهم قتلوا الكثيرين - إذا كان الموت ، فليمت الإنسان في ميدان مكشوف ، لا لقصد استعراضاً أو دعاية ، ولكن ليرى الناس . . إعلان الكفاح يحرك الجماهير . . يشعل نار الحماس في قلوبهم . . الموت خلف الأسوار أنه (من الأئين) خافتة . . لكن الموت في الميدان صرخة مدوية . . هذا ما أعتقده . . حينما أنظر إلى الأحداث أشعر أننا ننحدر إلى هاوية سحيقة . . » .

وساد الصمت من جديد . .

وشحت الظلمة البيت . . لم يفكر أحد في إضاءة النور . .

وتسلل أبو الحسن خارجاً . . يجب أن يعود إلى ذويه . .

لا شك أنهم قلقون عليه ، ولم لا يقلقون عليه؟؟ ألم يكن

واحداً من شباب «ماشومي» المرموقين؟؟ وأبوه مريض . .

وأمه مسكينة لا تكاد تعرف شيئاً يذكر عن السياسة

ودهاليزها . .



الفصل الثامن

اضطربت أمور الأسرة فى بيت حاجى محمد إدريس وسادها توتر متصل ، وأخذ الخيرون من الناس يتوافدون على البيت مواسين ، وقد تكون المأساة المعلقة أشد إثارة ، وأكبر تأثيراً على النفوس ، لكن أمراً حدث فشد الانتباه ، ففي صباح يوم ممطر وجدت فاطمة تحت الباب رسالة موجزة ، أخذت تقرأها فى انفعال : « حاجى محمد إدريس يناشدكم الرحمة ، ويطلب التوسط عاجلاً لإخراجه من محبسه ، إنه يقاسى أشد صنوف البلاء ، لا تدخروا وسعاً فى إنقاذه ، من الأفضل الاتصال بشخصية كبيرة فى الحزب ، فهم وحدهم القادرون على تحريره مما يعانى من العذاب » .

وأخذ أفراد الأسرة يتناقلون الرسالة ويقرأونها فى

إمعان، واشترك معهم أبو الحسن، وأخذوا يتدارسون الموقف، وقال قائل:

- «فلنحمل هذه الرسالة إلى الشرطة»، ورد آخر:
«الشرطة لا فائدة منها»، وقالت فاطمة:

- «لم لا أذهب إلى مقابلة الرئيس نفسه، أننى لم أفقد الأمل فيه كلية».

لو يوافق أبو الحسن على هذه الفكرة، وأردف:

- «لن تستطيعى الوصول إليه، إن حرسه الخاص - بعد إشاعة محاولة اغتياله - لا يسمح بمثل هذه المقابلات»، وهنا تدخلت الأم قائلة:

- «ولماذا تذهبون بعيداً؟ إن الرسالة نفسها حددت خط السير، رجال الحزب هم الذين يستطيعون معاونته».

زمجر أبو الحسن فى غضب:

- «أنذال».

- ثم شرد لحظات، وقال:

- «عندى فكرة» .

قالوا فى صوت واحد :

- «ما هى؟؟» .

- «أن نخطف رجلاً ذا شأن فى الحزب ونساوم به؟» .

قالت فاطمة فى شبه يأس :

-«كيف نختطفه؟ وإلى أين نذهب به؟ إنك بذلك

تعرض نفسك كما تعرض أبى للمخاطر ، إن إمكانياتنا بالنسبة للأعداء لا تعد شيئاً ذا قيمة . . أتجهلهم وقد ساقونا جميعاً نساء ورجالاً إلى السجن وانهالوا علينا تعذيباً وتمزيقاً . . إنها فكرة جنونية» . .

ثم تركوا الأمر وأخذوا يتساءلون عمن أوصل هذه الرسالة الغامضة ، ولماذا لم يكتبها الأب بخط يده؟ إنها لا شك صادرة من المكان الذى أسر فيه الأب ، قد يكون أحد الرجال الطيبين قد تطوع بكتابتها أو لعله أحد السجنائين أخذته موجة عطف نحو الرجل العجوز فكتبها تلبية لرجائه ، لكن لماذا يعذبون الرجل ، ولا يحترمون شيخوخته؟؟

ولمعت فى ذهن فاطمة فكرة، قالت ووجهها يشرق
بالأمل الوائق المتحدى :

- «سوف أذهب إليه» .

وتطلعت العيون إليها فى شغف فى طلب المزيد من
التوضيح . .

قالت فاطمة وهى تبتسم :

- «سأقابل الزعيم» .

صرخ أبو الحسن فى غيظ :

- «مستحيل» .

احتقن وجهها وهتفت فى إصرار :

- «لن أترك أبى للعذاب والموت» .

- «اهدئى يا فاطمة . . فالرجل ناعم الملمس كالثعبان» .

- «سأطرق كل باب من أجل أبى . .» .

- «إذن سأتى معك» .

- «بل سأذهب وحدي يا أبا الحسن» .

قال الشاب فى ضيق :

- «أتقدمين نفسك وليمة للذئاب» .

- «لن أكون إلا سماً فى حلوقهم» .

اختلفت الآراء وتضاربت ، وكان أبو الحسن أكثر المتحدثين رفضاً للفكرة ؛ لأنه لا يثق فى الزعيم ، ولأنه يؤمن أنهم سوف يتشفون ويعبثون ، بل ربما ينكرون القضية أساساً فى هذه الأيام العصبية ، إذ ليسوا من البلاهة بحيث يدينون أنفسهم علانية أمام أعضاء من جماعة «ماشومى» ، وأبو الحسن يرى أن رجال الحزب كانوا وراء حادث اختفاء حاجى محمد ، فلن يتركوه إلا بالطريقة التى تروق لهم ، وفى الوقت الذى يناسبهم ، أو لعلهم يلفقون له الآن تهمة من نوع جديد ، أو يلصقون به مؤامرة من صنع خيالهم لاغتيال الرئيس حتى يسبغوا الشرعية على اعتقاله ووضعها تحت رحمة المحققين؟ لأنهم ليسوا من الغباء بحيث يتركون الفرصة لأعدائهم كى يشنعوا عليهم . .

وأخيراً قالت فاطمة لأبى الحسن :

- «حسناً . أنت تكره الزعيم وأنا أكرهه، لكن القضية ليست هكذا . القضية هي إنقاذ أبى . . فلننح الانفعالات جانباً . . لننس الحرب والكرهية الآن . . هذا عين الصواب» .

ولم تدخر «فاطمة» وسعاً فى اليوم التالى، أخذت تبحث عن الزعيم فى كل مكان، ذهبت إليه فى مقر وزارته أخيراً، وكان موجوداً هناك، وانتظرت أكثر من ثلاث ساعات دون فائدة، قالوا لها إن الوزير فى مقابلة مهمة مع أحد السفراء الأجانب ولا يمكنه مقابلة أحد اليوم، ثم أخذوا اسمها وعنوانها، وطلبوا منها الانصراف على أمل الاتصال بها فى الوقت المناسب . . وذهبت فى اليوم التالى مساء إلى مقر الحزب، لقد رأت سيارته واقفة بالباب، لكن الجميع أنكروا وجوده، كانوا ينظرون إليها وإلى ملابسها كأنها إنسان هبط من المريخ لتوه، وبعضهم كان يسخر منها، وضافت فاطمة ذرعاً بالانتظار وشرحت الأمر لإحدى صديقاتها المقربات، فقالت لها إنها تعرف امرأة فى المنظمة

اسمها «جميلة»، وقد يمكن الإفادة منها . . وخاصة أن جميلة وزوجها عضوان بارزان فى الحزب . . حينما ذهبت فاطمة للقاء جميلة كانت وحدها، استقبلتها بنظرات فيها التوجس والشك ليكن أى شىء، إن ما يهيم فاطمة هو أبوها . . ولا أحد غيره، وهى على استعداد لتقبل أى شىء فى سبيل خلاصة . . كانت جميلة عصبية تكثر من الحديث وترديد الشعارات، تواكبها عنجهية ظاهرة لا مبرر لها، وكانت حولاء مخيفة النظرات، توحى لمن يراها بالكراهية والخوف، وبعد أن سمعت جميلة قصة الاختفاء كاملة قالت فى خبث:

- «لقد سمعت هذه القصة قبل ذلك، ولا أجد فيها دليلاً واحداً يؤيد ظنونك فى أن رجالنا اختطفوه»، فأخرجت فاطمة الرسالة الموجزة، وقدمتها لها . . وبعد أن قرأتها قالت:

- «حتى هذه أيضاً لا تعتبر دليلاً».

- «أختاه . . إنى أتوسل إليك».

- «لكن أمر كهذا بالغ الصعوبة».

- «إنها مساعدة إنسانية» .

قالت جميلة فى صفاقة :

- «إن مساعدى لأحد الرجعيين تسمى إلى سمعتى» .

- «لكنه برىء . . .» .

- «مجرد وجهة نظر قد لا يتفق معك فيها

الكثيرون . . .» .

وابتعلت جميلة ريقها، وقالت فى شىء من الارتباك :

- «ثم أن الأمر يحتاج لنفقات باهظة . . أعنى لا بد من

السفر إلى هنا وهناك . . والتحرى الدقيق . . والبحث عن

مكانه» .

أدركت فاطمة ما ترمى إليه جميلة، إنها رشوة مقنعة . .

حسناً قالت فاطمة :

- «هذا لا يهم . . إننى أعرف ذلك جيداً» .

- «ألديك ثلاثة آلاف روبية . . .» .

دهشت فاطمة، فالمبلغ بالنسبة لها كبير، لكنها على

استعداد لأن تبيع ملابسها لو اقتضى الأمر لإنقاذ أبيها،
وقالت وهي تطأطئ رأسها في استسلام:

- «اتفقنا . . .» .

ولم تضيع فاطمة الوقت سدى، فقد جمعت كل ما فى
البيت من ذهب بسيط وباعته، وبحثت عن بعض الأثاث
الجيد والتحف القديمة وذهبت بها إلى السوق، واقتضى
الأمر أيضاً أن تستدين بعض أموال من الأقارب
والأصدقاء، وباعتها لأحد تجار الكتب القديمة . .

وعلقت أمها قائلة:

- «المال يذهب ويحىء . . أنا لا أسف على شىء . .
المهم أن يعود الغائب المسكين . .» .

وشعرت فاطمة بارتياح كبير بعد أن قدمت «الجميلة»
ألفى من الروبيات الأندونيسية على أمل دفع الباقي فى
أقرب فرصة، ولم تعترض جميلة .

اختفى أبو الحسن ثلاثة أيام كاملة بعد أن أخذ «الرسالة»
المجهولة من فاطمة، لم يكن يداوم على عمله فى الكلية،

ولم يعثر له أحد على أثر في البيت، وعاد أبو الحسن بعد الأيام الثلاثة، وقال لفاطمة:

- «سوف أقلب الدنيا . . .» .

- «حذار أن تتورط في عمل عشوائي» .

هز رأسه دون أن يعلق، وفي اليوم التالي كانت صور حاجي محمد إدريس تملأ جدران الكلية، وإلى جوارها صورة بالزنكوغراف للرسالة التي أرسلها مجهول لأهله، ووزع في الوقت نفسه منشورات ضد الحزب متهمًا إياه بالغدر وخطف الأبرياء، وتدبير المكائد ضد المواطنين الشرفاء الأحرار، وحدثت ضجة كبرى، ووقف «أبو الحسن» أمام مكبر للصوت وألقى كلمة ملتهبة مهدت الطريق إلى هياج بالغ، أدى إلى الاصطدام بالأيدى بين أنصار الحزب وأنصار جماعة ماشومي، وأسفر عنه بعض الإصابات الطفيفة، وسرعان ما جاءت الشرطة وألقت القبض على عدد غير قليل من الطلبة والطالبات، وقد لوحظ في المساء أن جميع المتسبين للحزب قد صدر أمر

بالإفراج عنهم فوراً بعد تحقيق شكلى موجز، وبقى الآخرون فى المخفر رهن التحقيق والاستجواب . .

وسأل المحقق «أبا الحسن» :

- «أنت متهم بالتحريض على الفتنة، وما ترتب على ذلك من فوضى وإصابات» .

- «لم أقصد إلا أن أقدم صورة صادقة لما يجرى من مظالم وسط طائفة المثقفين . .» .

- «ليس هذا هو الطريق القانونى الذى تسلكه . .» .

- «أخطرنا الشرطة . . أرسلنا شكوى للرئيس . . ودفعنا الرشوة لأقطاب الحزب . . ماذا نفعل بعد ذلك لإنقاذ الرجل؟» .

قال المحقق وهو يسدد إليه نظرات غاضبة :

- «التحرى يحتاج إلى وقت، وقضية اختفاء حاجى محمد بين أيدينا وأنت لن تفلت من العقاب ثم ما هى الرشوة التى تتحدث عنها؟» .

وشرح أبو الحسن كل شيء، وعند استدعاء «جميلة»
أنكرت الأمر كلية، وقالت في حدة:

- «إن ذلك جزء من المخطط الرجعي القذر لتشويه
سمعة الحزب في البلاد. . نحن وجه الشعب المشرف. .
وأنا أحتج بكل شدة على هذه الافتراءات القذرة. .» .

وقدم أبو الحسن «الرسالة» للمحققين فلوى أحدهم
شفته السفلى في ازدراء، وقال:

- «هذه الورقة لا قيمة لها. .» .

أسقطها في يد «أبي الحسن»، وصدر أمر بوضعه في
السجن المركزي رهن المحاكمة. . وذهبت فاطمة إلى
«جميلة»، وما أن رأتها حتى صرخت في حدة:

- «اذهبي إلى الجحيم. . لقد أتلفتتم كل شيء
بحماقتكم. .» .

- «لكن. .» .

قاطعتها جميلة قائلة:

- «إذالم تذهبي، فسأستدعى الشرطة...».

وصفقت الباب، وتركت فاطمة واقفة تحت الظلام
والمطر وعيناها تذر فان الدموع السخية..

وفى اليوم التالى كانت فاطمة تروح وتجىء قرب قصر
الزعيم لقد أصرت على لقائه مهما كان الأمر، هى تعرف
أن حرس القصر يقفون كالصقور، ومع ذلك فقد استطاعت
ألا تلفت النظر إليها خلال الفترة القصيرة التى قضتها فى
الانتظار، وما أن رأته خارجاً من قصره، والحرس يحيط به
حتى صاحت بأعلى صوتها وهى تقترب منه:

- «أيها الزعيم أريد مقابلتك».

نظر إليها بدهشة، لم يزايله هدوءه، بينما جرى الحراس
ومسكوا بها، وهى تصيح:

- «لا تدعهم يمسكون بى... يجب أن تسمعنى...».

ابتسم فى برود، ومضى فى خطأ ثابتة صوب باب
السيارة المفتوحة، وانطلق دون أن يعيرها أدنى اهتمام..
قالت وهى تنسج نسيجاً عالياً:

- «أيها الطاغية . . يا من لا تعرف الرحمة . .» .

ورنت على فمها صفعه قوية جعلت الدماء تسيل من فمها، قالت والدماء تنقط شالها الأبيض :

- «أيها الوحوش . . لا بد وأن الله سيتقم منكم . .» .

ثم جروها إلى كشك خشبي صغير قريب من البيت، نظرت حولها فلم تر غير الوجوه الكالحة القاسية، والنظرات الحاقدة . .

- «دعوني أذهب إلى بيتي» .

- «سوف نرمى بك خلف الأسوار مع القناتل والسارقات . . .» .

وظهرت أمام الكشك الخشبي امرأة عليها مسحة من جمال، تلبس الفاخر من الثياب، وتفوح من أردانها رائحة ذكية، فأفسح لها الجميع الطريق وهم يغمغمون :

وأحنت رأسها في ابتسامة صافية، وهمست :

- «معدرة . . هيا معي» .

قال قائد الحرس :

- «لكن . . المفروض أن نسلمها للشرطة . .» .

- «لا شأن لك . .» .

دخلت السيدة وإلى جوارها فاطمة . . القصر رحب ،
حلو القسمات تملؤه الزهور واللوحات الزيتية ، وصور
للزعماء والرئيس تتوسطهم صورة الزعيم . . والثياب
المعلقة تبهر الأنظار ، والخدم نساء ورجالاً يتحركون في
أدب ورقة ، لا يجرؤ أحدهم على أن يلقي نظرة على ما
يجرى . .

- «يا إلهي . . إن قصرك يا سيدتي جميل . . رائع» .

- «عينك أجمل من كل شيء . .» .

كانت فاطمة متوترة مرهقة ، تكاد تجن ، والأحداث
المتوالية تضغط على أعصابها ، وهمست في شرود :

- «أخذوا أبي . .» .

- «من أبوك؟» .

- «وسجنوا خطيبي . . .» .
- «لا أفهم شيئاً . . .» .
- «والزعيم رفض مقابلتى . . .» .
- «اهدئى . . . واحكى لى عن كل شىء . . .» .
- «بعنا كل ما نملك . . . الحياة أصبحت ممقوتة . . . كلها عذاب . . . أشعر بضياح قاتل . . . لمَ كل هذا؟؟ ثم انتابتها موجة البكاء . . .» .
- كانت السيدة تربت على ظهرها فى حنان، وأشارت إلى إحدى الخادومات ثم صبت لها كأساً، وقالت :
- «اشربى يا فتاة . . .» .
- نظرت فاطمة بعيون ممتلئة بالدموع، وقالت فى رعب :
- «حاشا لله . . . لا أشرب الخمر . . .» .
- «لماذا؟؟؟» .
- «لأنها حرام . . .» .
-

ضحكت السيدة، لم ترغمها على الشرب، واستطاعت أن تهدئ روعها وتعرف قصتها كاملة، وأخيراً هزت رأسها وقالت:

- «أنا لا أرتاح لأمثال أبيك . . ومع ذلك فسأحاول مساعدتك . . وهذا وعد . .» .

الشمس مشرقة، وعيون فاطمة يحرقها العذاب والاحتقان، وضحكت فاطمة . . ضحكت لأنها تركب «سيارة» فاخرة، أصرت السيدة أن توصلها إلى بيتها . . وتطلعت عبر زجاج السيارة إلى العراة فى شوارع جاكرتا .
ثم أطرقت صامته . .



الفصل التاسع

- «أنا» جاريفودين «هل أدخل؟؟» .

قاسته المرأة بنظراتها، شكله غير مريح على أية حال، عيناه تبعثان على المقت والضيق والخوف أيضاً، شاربه منسق ضئيل شأن أولئك المعقدين نفسياً والذين يحاولون أن يضيفوا على أنفسهم شيئاً من القوة والجمال والكبرياء . . وغمغمت المرأة قائلة :

- «جاريفودين؟؟ من أنت» .

- «ضابط الاستخبارات . . ومكلف بالبحث عن زوجك . . أليس هذا بيت حاجي محمد إدريس؟؟» .

هزت رأسها فى شىء غير قليل من الاستخفاف،
وهمست :

- «تفضل . . .» .

وبعد أن استرخى على مقعد قديم، قال فى نفور:

- «أين ابنتك؟؟» .

واستأذنت لتوقظ الفتاة، بينما أخذ «جاريفودين» يلقي نظرة شاملة على ما حوله، هذه الرجل فى زى الحرب القديم معلقة على الحائط، تتم: «لا شك إنها صورة حاجى محمد»، وهذه آية قرآنية مكتوبة بخط يد عربى، لم يستطع الضابط أن يقرأها، لكنه فهم أنها بالأحرف العربية، وغمغم:

- «نعم . . . مكتوب فى الملف الخاص به أنه يقرأ العربية

ويكتبها . . .» .

وهناك أيضاً بعض الخناجر والسيوف الأثرية تتدلى على الحائط، وهز الضابط رأسه معلقاً بينه وبين نفسه: «ويؤمن أيضاً بالقوة» ثم أضاف: «لكنى لا أجد صورة للرئيس، إن لذلك دلالة واضحة لا تخفى على ذى عقل يفكر بعمق» .

وبعد دقائق عادت الأم وابنتها، كان الوقت حوالى العاشرة صباحاً، واليوم يوم الجمعة، وليس فى البيت سواهما، كانت فاطمة تنظر إلى الرجل فى اهتمام . . وقالت فى لهفة :

- «هل عثرتم على أبى؟؟» .

قال الضابط فى خبث :

- «نحن فى ميسس الحاجة إليه أكثر منكم . . لقد جلب على رؤوسنا صداغاً لا يطاق . .» .

وفتح «جاريفودين» دفترأ كبيراً، وهو يقول :

- «بعض الأسئلة التى لا بد منها، إنها فى صالحكم على أياه حال، فضلت أن أتى بنفسى، حتى لا أسبب لكم مزيداً من المتاعب . . حسناً . .» .

وران صمت قصير، قال «جاريفودين» بعدها :

- «هل كان بينه وبين أحد من جماعة «ماشمى» عداً؟؟» .

قالت فاطمة فى دهشة :

- «تقول عداء؟؟» .

- «نعم . . .» .

- «إنه أحد أعضائها . . .» .

- ابتسم الضابط فى دهاء ، ثم أردف :

- «أعرف . . .» .

- «كان أبى رجلاً صالحاً متسامحاً لا يعادى أحداً . . .

وتوجيه النقد والتعبير عن الرأى لا يعنيان العداء لأحد» .

- «أنا أسأل عن أعدائه فى جماعة «ماشومى» الإسلامية

بالذات» .

- «أيها الضابط . . . أنا لا أفهم ما ترمى إليه . . .» .

أشعل «جاريفودين» سيجارة ، ثم قال :

- «حسناً . . . تعرفين يا فاطمة أن الجماعات السياسية يدب

بين أعضائها كثير من الخلف . . . حتى بين أخلص الخلاء

منهم . . . حسناً . . . أبوك كما نعرف من ملفاته ، وكما تقولين أنت ، صاحب رأى ، وجرىء فى نقده ، ألا يحتمل أن يكون الخلاف قد دب بينه وبين بعض زعماء «ماشومى» . . .» .

قالت فاطمة وهى تهز كتفيها فى دهشة :

- «لا أظن ذلك؟؟» .

- «هل أنت متأكدة؟؟» .

- «كل التأكيد . . .» .

قال «جاريفودين» ، وعيناه نصف مغمضتين والسخرية تشيع فى نظراته المقيتة :

- «أبوك يا أنسة خطفه مسلحون من «ماشومى» . . .» .

على الرغم منها ضحكت فاطمة . . . ضحكت بطريقة أغضبت الضابط الذى قال وقد احتقن وجهه :

- «ما معنى ذلك؟؟» .

جرت فاطمة ، وأحضرت القصاصة التى أرسلها أبوها يستنجد بواسطة أحد الذين عطفوا عليه . . . ونظر الضابط

إلى الورقة ثم زم شفته دون اكتراث، وقال :

- «قد تكون هذه الورقة مرسله من قبل «ماشومى» للتضليل . . أنا أعرفهم جيداً . .» .

لم تشترك الأم فى الحديث كانت تجلس مهمومة لا تتكلم، والدموع توشك أن تنبثق من عينيها، أما فاطمة فقد أدركت على الفور أن فى الأمر خدعة، فأجهزة الأمن تحاول أن تتنصل من القضية بعد أن شاع أمرها، وتحدث الناس عنها فى كل مكان، وتريد أجهزة الأمن أن تدين منظمة «ماشومى» المغضوب عليها من السلطات، وتصور المنظمة بصورة العصابات المتناحرة التى لا تحسن التصرف، ويمزق الخلاف أعضاءها، وتنعدم الثقة بين رجالها، وتحاول أن تضم المنظمة بالإرهاب والتعسف الذى تمارسه ضد الحاكم وضد المخالفين لها فى رأى بل وضد أفرادها أنفسهم، كما تسعى سلطات الأمن جاهدة أن تبعد الشبهة عن رجال الحزب لأمر ما، وعن الحكومة أيضاً . .

وعاد جاريفودين يقول :

- «إن نظرتي للأمور أشمل وأعمق، سترين أنني كنت على حق، لكن بعد فوات الأوان . . .» .



فى معتقله البعيد كان «حاجى محمد إدريس» يقاسى العناء ألواناً كانوا يضربونه على الرغم من شيخوخته ووهن صحته، وكانوا يكيلون له السخريات، وهى أشق على نفسه من ضرب الشياطين، وفى الأوقات القليلة التى يفرغ فيها لنفسه داخل الزنزانة المظلمة يجلس متجهاً ناحية القبلة، فيقرأ ما حفظ من آيات القرآن، ويردد الدعاء وعيناه مخضلتان بالدموع، ويطيل الركوع والسجود، وكان بين آونة وأخرى يرفع يديه وعينه إلى السماء ويقول «يا إلهى . . . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى»، وعلى الرغم من العنف البالغ الذى مارسه قائد السجن، إلا أن بعض السجناء كانوا يشعرون بالأم نفسية حادة، وتأنب شديد للضمير، وهم يشاركون فى اللعبة القذرة بأمر رؤسائهم . . . وفى بعض الأحيان كان بعضهم يتسلل تحت جناح الظلام

قبيل الفجر، حيث الجميع نيام، ويفتح باب الزنانة، وينكب على يدي السجين العجوز ويشبعها لثماً وتقبيلاً وهو يقول:

- «اعذرني يا شيخى.. فنحن ننفذ الأوامر، وقلوبنا تتمزق.. إليك الماء.. والطعام.. وغطاءً إضافياً.. إننى على استعداد أن أفعل أى شىء شريطة ألا يعلم رؤسائى بالأمر..».

ويغمغم حاجى محمد باسمًا:

- «﴿إِلَّا مِنْ أُوْكَرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾» [النحل]:
[١٠٦].. أنت يا ولدى مؤمن، لكن الظلمة يكرهونك على فعل الشر.. وأنا أدعوك بالخلاص.. فأنت سجين مثلى.. سجين لخطايا غيرك.. وسوف يحرك الله من أسار العبيد..».

وهكذا تطوع أحد الجنود وأرسل الرسالة إلى أهل حاجى محمد يخبرهم بحقيقة الوضع فى سطور قليلة

مقتضبة . . واستطاع أحدهم أن يهمس فى أذن «حاجى محمد» بما حدث :

وغمغم حاجى محمد :

- «الظلام الدامس يلف الوجود . . لكن الله يخترق الحجب ويضىء بأشعته السحرية الخالدة التى يخطئها عميان البصيرة . . واليأس يوشح الكائنات . . لكن الأمل يخفق فى قلوب المؤمنين . .» .

وكان قد طلب من «حاجى محمد» أن يكتب قصة حياته كاملة، فأطاع الأمر، وكتب كل ما يتذكره، وعندما قرأها قائد السجن، استدعاه، وقال فى ضيق :

- «إن ثلاثة أرباع ما كتبت عن الحرب ضد الهولنديين . . أتريد أن توهمنا بأنك بطل؟؟» .

- «معذرة أيها القائد . . فأنا عبد ضعيف من عباد الله، ولا أمن بجهادى . . فالثواب عند الله، ولكنى نفذت ما طلبته منى . .» .

قال القائد فى حنق :

- «أنتم تزيفون التاريخ» .

- «نحن؟؟» .

- «أجل ، وتسرقون أمجاد غيركم . . .» .

- «الأمجاد لا تسرق ، وخاصة إذا كان الناس يعرفون الحقيقة المسجلة فى الوثائق . . ما زال أبطال الحرب أحياء . . .» .

هب القائد واقفاً ، وسأل :

- «من أجل أى شىء كنت تحارب؟» .

- «جهاد فى سبيل الله . . .» .

قال القائد فى امتعاض :

- «ما دام الله قوياً ، فهو ليس فى حاجة إلى

جهادكم . . .» .

- «لكنه أمرنا به . . .» .

- «الأبطال الحقيقيون هم الذين يحاربون من أجل تحرير أنفسهم وتحرير أراضيهم . . .» .
- «المجاهد الحق ، هو من حرر نفسه من الوهم والخوف والشرك قبل أن ينزل إلى ميدان القتال . . .» .
- «سفسطة فارغة . . .» .
- «والحرب لا تكون جهاداً إلا إذا كان هدفها إعلاء كلمة الله . . . عندئذ يسعد الناس بالحرية والكرامة والأمن . . . كلمة الله هي العدل . . .» .
- سكت القائد مفكراً ، ثم قال :
- «وكنت عضواً في جماعة ماشومي؟» .
- «أجل . . .» .
- «وجماعة ماشومي في قفص الاتهام . . .» .
- «أعرف أنكم وضعتموهم فيه . . .» .
- «حتى نحمل الوطن من الفساد والرجعية والعمالة . . .» .
-

ابتسم حاجي محمد قائلاً:

- «أريد أن أعرف العالم، وأستفيد..» .

رد القائد ساخرًا:

- «تستفيد أم تقبض الثمن من المخابرات الأجنبية» .

- «هل وجدتم في بيتي نقوداً تذكر؟؟» .

وابتلع حاجي محمد ريقه، وقال:

- «لست عميلاً لهذه الدول، ولا ذنباً لتلك.. أنا

محسوب على الله.. أنا محسوب على الله..» .

وشعر حاجي محمد بكف ثقيلة تهوى على وجهه

فجأة، فنظر إلى القائد في أسى، وقال:

- «سامحك الله..» .

- «كلما أبعدتك عن الحديث عن الله عدت إليه

ثانية..» .

- «إنه حبيبي..» .

- «فليخرجك من هذا المكان إذن..» .

- «بالتأكيد . . .» .

- «متى؟؟؟» .

- «عندما يشاء . . . يسأل ولا يُسأل . . . سبحانه» .

ولم يستطع القائد أن يتكلم، واستطرد حاجي محمد قائلاً، وعينه تطوفان بالنجوم الساطعة في السماء:

- «إنه معي . . . معي دائماً . . . أناجيه . . . وأضرع إليه . . .» .

وحدث أمر آخر غريب، فقد شهق أحد السجناء الواقفين باكيًا، فنظر إليه القائد في اندهاش وصاح:

- «خذوا هذا الجندي إلى السجن العسكري . . . جردوه من سلاحه . . . حالاً . . . حالاً» .

وجمد الجنود لحظات وقد شحبت وجوههم، وعاد القائد يصيح في جنون:

- «خذوه . . . خذوه . . .» .

وسرعان ما أمسكوا بالجندي، وساقوه إلى الخارج . . .

كان العرق يتصبب على جبين القائد . . وعاد ينظر إلى حاجي محمد الذى وقف صامتاً هادئاً . . كان وجهه يشع بنور حقيقى . . وكانت هامته ترتفع . . وترتفع . . أو هكذا خيل إلى القائد المخمور . . حتى بدا حاجي محمد كفارس أسطورى يهبط من السحاب، ووضع القائد يديه فوق عينيه وصاح:

- «خذوه هو الآخر إلى زنزانته . .» .

وعاد القائد بعد أن صار وحده يدق المنضدة بقبضة متشنجة، ويقول وهو يكاد يبكى:

- «أنا لا أفهم . . لا أفهم . . ياله من عذاب؟!» .



الفصل العاشر

عاد الزعيم إلى بيته بعد غيبة طالت خمسة أيام كان يقوم خلالها بجولة في أنحاء البلاد، وكان المقصود بالزيارة المراكز الرئيسية للحزب في الجزر، وذهب إلى كثير من المدن . . إلخ، وألقى خلال هذه الجولة أكثر من عشرين خطبة، وعقد مئات الاجتماعات، ووزع الأوامر السرية الخاصة بالحزب ومستقبله، ووعدهم بتوزيع الكثير من السلاح عليهم في أقرب فرصة، وأكد لهم أن أحداثاً مهمة قد تجدد في أول أكتوبر أو قبله بقليل، كان الزعيم يثق بنفسه، وبمخططة ثقة لا حد لها، والحق يقال إن عوامل النجاح كانت متوفرة أمام عينيه، فقد استطاع أن يضم إلى صفة الرئيس نفسه، ووزير خارجيته، ورئيس الاستخبارات

العامه، ونائب رئيس الوزراء، وهناك الكثيرون من الوزراء ورجال الإعلام، وأعداد كبيرة من ضباط الجيش والشرطة والحرس الجمهورى وسلاح الطيران والبحرية والقوات البرية، إلى جانب أن الكثيرين من أعداء الحزب هم الآن فى السجن، ومنهم رؤساء تحرير الصحف، وزعماء الطلبة، وقادة الأحزاب السياسية والدينية المناوئة، كما اتفق مع المسئولين فى إرسال بعثات عسكرية ودبلوماسية إلى الخارج، اختيار أفرادها ممن يؤمنون بمبادئ الحزب وسياسته. . كل شىء معد تمامًا ولا مجال للخوف أو التردد.

حين عاد «الزعيم» كانت زوجته تجلس فى انتظارها، الساعة الآن الحادية عشرة مساءً إلا قليلاً. . وهى تتألق فى ثوبها الحريري الأخاذ، عيناها تشرقان فى سعادة، استقبلته فاتحة ذراعيها، وهمست فى نعومة:

- «لشد ما اشتقت إليك».

ضمها إليه فى قوة، وقال:

- «هذا رائع . . لقد كانت ملايين الأذرع تتلقفنى طوال السفر . . .» .

- «أنا غيرهم . . إن أذرع النساء غير الرجال . . .» .

قال معابثًا :

- «كان فى المستقبلين نساء كثيرات» .

- «اللجنة عليهن . . .» .

- «لماذا؟؟ نحن مجرد رفاق مخلصين» .

- «أنا أغار من أية امرأة . . .» .

- «إننى سعيد بحبك . . .» .

قالت شاردة :

- «عندما تكون الرجل الأول فى هذه البلاد، أتعتقد

أننى سأكون المرأة الأولى؟؟» .

طبع على خدها قبلة عجلى، وقال :

- «بالتأكيد يا حبيبتى . . فقد جمعنا الحب والمبدأ على

درب واحد من سنين طويلة . . .» .

- «أخاف أن تكون مثل الرئيس الذي ألف كتاباً يدافع عن حقوق المرأة، لكنه في الوقت نفسه تزوج عدداً كبيراً من النساء . . صدقنى . . أنا أكره هذا الرجل . .» .

تناول الزعيم كأساً شربها دفعة واحدة، وهو يضحك سعيداً، وغمغم فى سخريه:

- «كان فى إمكانه أن يستمتع بمن يشاء منهن دون زواج . .» .

ثم ربت على كتفها، وقال:

- «حذار من هذا الكلام يا جيببى . . الرجل صديق حميم لنا . . وما هكذا يكون الكلام عن الأصدقاء» .

كانت الزوجة متأججة الشوق، مشغوفة بلقاء زوجها، وكان حماسها يبدو جلياً واضحاً، ومع ذلك فقد أخذ يتشاءب ويتمطى، مما أثار حفيظتها عليه، وقالت غاضبة:

- «أتنام؟؟» .

- «أعتقد ذلك» .

- «ما معنى ذلك؟؟» .

- «معناها يا حبيبتى أنى متعب» .

نظرت إليه فى غيظ ، وقالت :

- «بل معناها أنك استنفدت طاقتك بين أحضان

العاهرات فى المدن والقرى . . » .

قال وهو يخلع بدلته ، ويرتدى ملابسه المنزلية :

- «إنها مسألة فسيولوجية بحثة . . فعندما يجوع الإنسان

لا بد أن يأكل . . فى أى مكان . . ولا بد أن يسد جوعه بأى

طعام . . المعدة لا ترحم . . والجنس أيضاً مثل ذلك

تماماً . . » .

قالت وهى تصر على أسنانها فى غيظ :

- «إذن فأنت تعترف . . » .

- «لم أعترف بشيء . . ولكننى أقول حتى لو حدث ما

تزعمين فإنه يجب ألا يثير حافظتك لهذه الدرجة» .

قالت وسحابة من الأسى تطوف على جبينها :

- «إنك تطعننى فى أعز ما أملك»

تمتم فى ضيق :

- «هذا الحديث لا يروق لى» .

- رمقته بنظرة حزينة ، فاستطرد :

- «أنت المتفردة بقلبى ، حتى ولو كان لى كل يوم

خليلة . . .» .

- «هذا المنطق الكسيح ينفرننى منك . . .» .

صرخ فيها . . .

نظرت إليه فى تحد :

- «ماذا تريد؟» .

- «يجب أن تصمتى . . . إن عقلى مشغول بأمر كبار . . .

إما أن نكون أو لا نكون . . .» .

وتناول الزعيم وجبة خفيفة من الطعام وكأسين أو ثلاثة

وهو شارد ، وقال :

- «بالعنف وحده تحسم الأمور . . .» .

- «ماذا تقصد؟؟» .

- «ولا يصح أن نترك للعدو ثغرة ينفذ من خلالها . . .» .

وذهب إلى دورة المياه ثم عاد يقول :

- «طاب مساؤك» .

هل تعرف معنى تلك الكلمة، لسوف تنام إذن في غرفتها الخاصة، وينام هو في غرفته الأخرى، وذهبت إلى سريرها في كدر، لماذا في هذه الأيام بالذات تشعر بالقلق البالغ، وتشك أكثر وأكثر في سلوك زوجها . . . في الماضي كانت تراه يراقص الجميلات، ويداعب الصبايا الحسان، ويقبّل بعضهن، وأحياناً تسمع أنه يزور نساء مشهورات من بين الفنانات مقابل أن يفتح لهن الطريق إلى شاشة السينما أو كاميرا التلفزيون، أو ميكروفون الإذاعة، أو بلاط صاحبة الجلالة الصحافة، لم تكن لتكثر كثيراً بما تسمعه، فماذا جرى لها في هذه الأيام بالذات؟؟ أصبحت لا تطيق رؤية أو

سماع شيء من هذا القبيل . . مفاهيمها التقدمية الجزئية الخاصة بمسألة الرجل والمرأة تتداعى . . أصبحت فى نظرها تافهة لا قيمة لها، شعور الملكية الفردية يتسلل إليها، أصبحت تؤمن بأن زوجها يجب أن يكون لها وحدها، وأصبحت تتشبث بأعلى الثياب والجواهر وإن تنافى ذلك مع كونها رائدة أصيلة، وأصبحت تنظر إلى الخدم على أنهم كائنات أخرى غيرها وغير زوجها . . هذا ما تحسه بالضبط، وأن كان كلامها فى المجتمعات، ومقالاتها فى الصحف، وأحاديثها فى الراديو أو التلفزيون تقول كلاماً آخر غير ذلك . . كان الزعيم يغط فى نوم عميق وكانت هى تعانى من الأرق والعذاب والملل . . وفكرت . . ماذا تفعل؟؟ لماذا لا تنطلق وتستمتع بحياتها كما يستمتع زوجها؟؟

وتذكرت أن إحدى صديقاتها فى المجتمع الراقى قد دعتها إلى حفلة فى هذا المساء بالذات . . وبدون إبطاء أسرعت إلى التلفزيون، كانت تسمع من خلال السماع

الضحكات المختلطة بأنغام الموسيقى «حسناً عزيزتى . . سوف أحضر الحفل . . سوف أتى إليك حالاً» . . وأغلقت التليفون، ثم دقت الجرس مستدعية الخادمة . .

- «أخبرى السائق أن يعد السيارة . . سوف أنزل فى خلال ربع ساعة . . بسرعة كانت الحفلة صاحبة، ورقصت، كما لم ترقص من قبل، وتقلبت بين أحضان المدعوين، وأفرطت فى الشراب حتى سكرت تماماً، كانت تمضى وكأنها فى حلم بويهى مسحور، تساقطت كل نوازع الخوف والقلق والصراع تحت قدميها، كانت تغمغم «الجنس وظيفة . . ظاهرة فسيولوجية . . عندما يجوع الإنسان يأكل فى أى مكان . . أى طعام . . أننى أشعر بجوع قاتل . .» .

وهناك حجرات خافتة الضوء . . لا تكاد تبين فيها ملامح الوجوه، كل شىء يغشيه الغموض الجميل والرؤى الساحرة، والأحلام البهيجة . . ولم تفق إلا ظهر اليوم التالى . . كانت تشعر بصداع شديد . . وتلفتت حواليتها . . السكارى نائمون هنا وهناك . . عرايا أو أنصاف عرايا نساء

ورجالاً . . لا قيمة لشيء . . وتذكرت الزعيم، وقالت وقد انفجرت باكية وهي تخاطب مجهولاً:

- «هل رأيت أيها الأحمق كيف سارت الأمور؟؟ إنها فلسفتك العمياء . . أنا مظلومة . . مظلومة» .

في هذا الصباح كاد الزعيم يجن حينما لم يجد زوجته، لقد علم أنها خرجت حوالى منتصف الليل، ولم تخبر أحداً بمكانها، واستطاع أن يعرف أن أحد السائقين قد صاحبها ولم يعد هو الآخر، وغمغم في غيظ:

- «كيف تخرج دون أن تخبرني . . إنه أمر شائن . . لا أرضاه لنفسى . . قد أرضاه للآخرين . . لكن الزعامة لها مواصفات خاصة، هذه المجنونة سوف تحطم كبريائى وسمعتى . .» .

وبقى فى البيت يروح ويجىء كمجنون، يصرخ بالخدم ويرفض الطعام، ويقبل على الشراب بشراهة، ثم وثبت إلى ذهنه فكرة، وقام على الفور واتصل برئيس استخبارات

الحزب، وطلب منه البحث عن سيارته رقم «...»،
ويكفى أن يعرف مكانها، ثم يخبره بها لا أكثر، كان رئيس
الاستخبارات ذكياً، فاستطاع بسرعة أن يحصر الأماكن التي
يحتمل أن يكون للزعيم أو زوجه صلات خاصة بها وبعد
ساعة واحدة جاءت الأنباء . . .

- «السيارة يا سيدى الزعيم موجود فى شارع دفوينفورو
أمام منزل نائب الرئيس ووزير الخارجية . . .» .

دب قلبه رعباً، ثم قال باقتضاب: «شكراً»، وعاد يقطع
غرفة الصالون جيئة وذهاباً، ويغمغم:

- «فى هذا الوكر القذر وفى مسكن وزير الخارجية
بالذات عميلى الرخيص الذى ألعب به كما أشاء وأحركه
كقطعة الشطرنج؟؟ هذا مستحيل . . .» .

وقرر أن ينزل إليها بنفسه، ويجرها من شعرها مهما كان
الأمر، لكن الباب يفتح . . . وتدخل زوجته شاحبة الوجه،
محتقنة العينين، مهوشة الشعر، كالمائدة عقب أن هجرها
الآكلون، لم تستطع أن تواجه نظراته الملتهبة، وهمّت

بالذهاب إلى حجرتها، لكنه اندفع صوبها كالسهم،
وأمسك بذراعها هاتفاً:

- «أين كنت؟؟» .

قالت وهي تحاول التماسك، وتتصنع عدم الاهتمام:

- «فى حفلة . . .» .

- «ولم لا تخبرينى؟» .

- «كنت نائماً . . .» .

- «وفى هذا البيت بالذات؟؟» .

- «ألم تذهب إليه كل أسبوع؟؟» .

- «لكنه بالنسبة لك أمر آخر . . .» .

- «لا شىء فى ذلك . . .» .

ودوت على وجهها صفة قوية أودعها كل ثورته
وحنقه، وضعت يدها مكان الصفة، ونظرت إليه بعينين
غائمتين، وقالت بصوت متحرج:

- «أسفة يا حضرة الزعيم . . .» .
- «ماذا جرى هناك؟؟» .
- «كما يجرى دائماً . . شربنا ورقصنا . . وكانت الموسيقى تعزف» .
- هز رأسه فى حيرة، وقال :
- «لقد أصبحت أنت أكبر عقبة فى طريقى . . .» .
- قالت فى هدوء غريب :
- «طلقنى . . .» .
- صرخت فى هستريا :
- «قلت طلقنى . . .» .
- «كيف تجرؤين على قولها . . .» .
- «أنا أرفض الظلم . . أنت ترضى لنفسك ما لا ترضاه لغيرك . . .» .
- «هل جنت . . .» .
-

- «لقد ضقت بإهمالك لى . . .» .
- «لمَ لا تلتمسين لى عذراً؟؟؟» .
- هزت كتفيها فى ازدراء، وقالت :
- «لى حق الحياة الكاملة . . .» .
- «نحن فى وقت عصيب يجب أن نتجنب فيه الفضائح، والصحف لن ترحمنى . . .» .
- قالت فى غيظ :
- أنت لا تفكر إلا فى نفسك ومستقبلك السياسى . . .» .
- «لأنه مستقبلنا جميعاً . . .» .

لقد كانت مندهشة لسرعة هدوئه، وضبطه لأعصابه فى هذه الحادثة، ومع ذلك فإن دهشتها لم تطل، كانت تعرف جيداً أخلاق زوجها، فهو يستطيع أن يتحكم فى أعصابه فى أحرج اللحظات، بل إن الإهانة قد توجه إليه، لكنه يتجاهلها ولا يعجل بالثأر لنفسه، وكانت تعلم أن زوجها

على وشك أن يقوم بعمل كبير، ومن ثم فلن تفلت أعصابه
أو يرتكب أية حماقة في حقها، قالت:

- «أريد أن أستريح . . .» .

وذهلت إذ سمعته يقول:

- «يجب أن ننسى ما حدث كلية . . .» .

نظرت إليه فوجدته يبتسم، ثم يقبل نحوها ويقبلها
ويغمغم:

- «أسف يا حبيبتى . . .» .



الفصل الحادى عشر

شعر أبو الحسن بغير قليل من الحزن وهو يتذكر «فاطمة»، أدرك أنها ضرورة له كالماء والهواء والطعام، وأنها فوق ذلك كله تشكل جزءاً من روحه وكيانه، وتبين له مدى عمق حبه الكثير لها وتناوبته الوسواس، أيكن أن تنصرف عنه، ويتعلق قلبها بغيره؟؟ إنه لشيء مهول كحدث، وضحك من نفسه، وهذه الخواطر المتضاربة تعبت بفؤاده، ماذا جرى له؟؟ لا شك أن الأيام الحالكة السوداء التي عاشها قبل اعتقاله رهن التحقيق، والتي يقضيها الآن رهن المحاكمة قد أثرت على أعصابه فأفقدته التوازن، وخاصة أنه يسجن لأول مرة، التجربة جديدة ومثيرة، لكنها مؤلمة ومحزنة بكل ما تحمل الكلمات من معنى.

وهناك خاطر آخر يلح عليه ويسبب له كثيراً من الأرق إنه يفكر الآن فيما فعله، لقد طبع بعض المنشورات والملصقات، ثم ألقى كلمات ملتهبة . . هذا كل ما فى الأمر، فماذا كانت النتيجة؟؟ إنه الآن مقدم للمحاكمة وتلقى العديد من الإهانات . . صفعات على قفاه . . ركلات فى بطنه ومؤخرته . . بصقات فى وجهه . . احتقار كامل من ضباط الاستخبارات . . لقد شعر آنذاك بتفاهته، وتفاهة العمل الذى قام به، كان ما فعله مجرد نوبة صراع لم تبدل شيئاً فى الأوضاع القائمة الفاسدة، ولم ترجع حاجى محمد إلى بيته، ولم تقض على سيطرة رجال الحزب وتحكمهم وطغيانهم . . إن الأمر أعمق من ذلك وأخطر، فهو يحتاج إلى تفكير عميق . . يحتاج إلى ضبط الانفعالات، وتحويل الحركات الهستيرية الانفعالية إلى خطة عمل منظم . . لا يهم الوقت، النتيجة هى الأهم . . ونحن فى عصر واع يسيطر عليه العلم والتخطيط . . أما الخطب الطنانة، والمظاهرات الصاخبة، والمنشورات الملتهبة الكلمات، فإنها ذات تأثير وقتى، مجرد تفرغ لشحنات هادرة فى الهواء دون الاستفادة

منها على الوجه الصحيح ، العدو ينسق وينظم ويضبط إيقاعه ، ويرسم خطواته ، ويدعم مواقفه في كل اتجاه لكن أبا الحسن . . . تصرف بحماقة ، تصرف كما لو كان يقول للأعداء : هأنذا . . . تعالوا إننى سأخط عليكم ، أنوى الفتك بكم ، دون أن يفعل شيئاً ذا قيمة عملية . . . كانت تضحيتها بلا ثمن كبير . . . أجل الكفاج بالكلمة وحدها لا يجدى مهما كانت حرارتها وتأثيرها . . . الكلمة مجرد بداية يجب أن يتبعها تنظيم وعمل متحد قوى فى إطار المعانى الكبيرة التى يؤمن بها . . .

ووقف «أبو الحسن» وحيداً فى زنزانته يصرخ :

- «ماذا أقول؟؟ إننى أوشك على الانهيار . . . وأتسلل إلى منطقة اليأس ، وأتلظى بنار الندم . . . لا . . . لا . . . إن ما فعلته لن يذهب هباء . . . صدى الكلمات لا شك فى أروقة الجامعة . . . وينتقل إلى الشارع حيث جموع البائسين . . . الكلمة هى التحريض . . . هى وسيلة الكشف . . . هى التى تصنع المواقف ، وتحدد سير التاريخ ، وتحدث التغيير الكبير . . . لو فعل مثلى فى كل معهد علمى . . . فى كل

مصنع . . فى كل مؤسسة . . لو فعل واحد مثلى . . لتغيرت
الأمر، وتحركت المشاعر إلى صنع مستقبل أفضل . . « .

استراح لهذه الخواطر . . وأشرف خيال «فاطمة» عبر
الصمت والأفكار المرهقة . . وجهها يضىء بالأمل، ويعزف
أحلى أغنية . . الطهر والجمال وأناشيد المتصوفين فى
عينها . . الثقة والحنان، وأراجيز الرعاة على شفيتها . .
المستقبل النضر، والغد المترع بالأحلام الجميلة فى
طلعتها . . هى لى وأنا لها . . وأنا على استعداد أن أخوض
بحار الأهوال، أو أقتحم لهيب النار، وأتصدى لحشود
الموت . . وهى إلى جوارى . .

«حبيبى الله معنا . . لأننا نحب الله . . ونعشق العدل . .
ونشدو فى بستان الحقيقة حيث الإيمان والأمل . .»، وتذكر
الآلام والصفعات والركلات والإهانات المختلفة . . وتذكر
الوجوه المكفهرة المنذرة بالجحيم والعذاب . . فابتسم . . لم
يخف . . الروح بيد خالقها، والعمر مكتوب، والطريق
واضح، وأجنحة الحب الشفافة تخفق عليه فى كهفه
الأسود؟؟؟

وسمع صرير الأبواب . . «ها قد عادوا . العناد
والعذاب فى ركابها . . اللعنة على كل الظالمين .»، وخفق
قلبه . . لكنه ابتسم فى شحوب، واضطربت حركاته . .

- «أبو الحسن . . لك زيارة» .

وقف مشدوهاً بعض الوقت، ثم همس :

- «المحامى؟؟» .

- «لم ينطق الحارس بكلمة سوى : «هيا» .

الضوء القوى يبهر عينيه بعد ساعات طويلة فى الحبس،
وبعض المسجونين يغسلون أرض السجن ويتحركون فى
خوف وسرعة . . وسجان قاس يصرخ بهم كى يفرغوا من
عملهم على وجه السرعة . . ورجل فى شبه إغماءة . . يبدو
عليه المرض الشديد . . يحمله سجينان كما يحملان شوالاً
من الأرز متجهين صوب مستشفى السجن الصغير، وفى
طرف الفناء الكبير للسجن عمود طويل يخفق فى نهايته علم
البلاد وكأنه مصروع ينتفض فى تشنجات متشابهة . .

وبجوار العمود الغرفة اللعينة . . آه . . إنها مغلقة الآن . .
وفى هذه الغرفة يأتون به فى المساء ، ، ويضربونه . . الضابط
يجلس خلف مكتبة هادئاً يكتب كل ما يقوله «أبو الحسن»
لشد ما يكره هذا المكان . . ذات مرة يالها من ذكرى مؤذية
آلمه الضرب ، فما كان منه إلا أن قال لجلاده : «ارحمنى . .
أنا برىء» كان يضرع . . شعر وقتها بضعفه ، وانهيأ
عزيمته ، وتزلزل إيمانه . . يالها من لحظات !!

بعدها شعر أن أصابع الشيطان كانت تتسلل إلى فكره
وعقله وروحه . . فكيف يضرع لبشر؟؟

كيف يضرع لغير الله . . هذه كارثة . . وأفاق أبو الحسن
من هواجسه على صوت السجّان يصرخ به :

- «قلت لك اتجه يميناً . .» .

- «ظننت أننى ذاهب لمقابلة المحامى . .» .

- «أيها الأحمق . . قلت لك زيارة . . زيارة . . ألا

تفهم؟؟» ، وفى حجرة الزوّار وجدها . .

كانت تجلس فى لهفة وترقب بثيابها المحتشمة المعروفة،
والتوتر فى حركات يديها، وعلى ملامح وجهها، وسرعة
الحركات فى أهدابها.

- «فاطمة؟؟».

- «أبو الحسن؟؟».

لم يستطع أن يزيد، فقد كانت الكلمات محتبسة فى
حلقة، ولم تستطع هى الأخرى أن تواصل الحديث فقد
سبقت الدموع الكلمات، صافح يداً باردة مرتعشة.. وأخذ
يبحث عن الكلمات، إنها هاربة لا تطاوعه، أخذ يبتسم بلا
معنى، ويتنحج بلا سبب.. وأخيراً استطاع أن يقول:

- «كل شىء يهون..».

- «هل انتهى التحقيق؟؟».

- «أجل.. والمحكمة بعد غد..».

قال وقد شعر بيقين لم يشعر به من قبل:

- «لا أخاف إلا الله..».

وتذكر الضراعة المحزنة للجلاد اللعين فشعر بالحنين ،
ماذا لو عرفت فاطمة الحقيقة؟؟ أتراها تحن لزيارته مرة ثانية ،
وتبقى محتفظة بعاطفتها الجياشة نحوه؟؟ وسمعتها تقول :

- «لم يعد أبى» .

- حينما أفكر فيما حدث يا فاطمة ، وأنظر حولي ،
يخيل إلى أننا فى عصر انهيار وانحطاط . . .» .

قال الضابط الجالس بالقرب منهما حينما رأهما
يتهامسان :

- «ماذا تقولان؟؟» .

قالا فى الوقت نفسه فى لعثمة :

- «لا شىء . . لا شىء . .» .

- «لكنكما تتهامسان يجب أن أسمع جيداً ما
تقولان . . .» .

كان الضابط يتكلم وهو يتصفح جريدة يومية أمامه دون
أن يرفع عنها بصره ، وعاد الضابط يقول :

- «الزيارة جعلت لكى يرى كل منكما الآخر ويطمئن عليه فقط . . كيف صحتك؟؟ كيف حالك؟؟ ألا تريد شيئاً . . أنا بخير . . أريد بعض الروبيات . . كيف حال والدى؟؟ ووالدتى وأخواتى؟؟ هذا كل ما يقال فى الزيارات . . مفهوم؟؟» .

وأطرق كل منهما صامتاً بعض الوقت ، وهما يتبادلان النظرات الصامته ، بعد أن أفسد الضابط عليهما متعة اللقاء ، ولاحظ أنهما قد أخرجوا واضطربا وكفا عن الحديث ، فجمع أوراق الصحيفة ، ثم هم بالخروج ، وهو يقول :

- «سأترككما بضع دقائق . .» .

وقال وهو يخرج من الباب موجهًا الحديث لأبى الحسن :

- «أنت تعرف النظم واللوائح فى السجون . . أرجو ألا تقع أية مخالفات . . وسأقوم بتفتيشك بدقة عقب الزيارة . .» .

تنهد أبو الحسن فى ارتياح :

- «الحمد لله . . .» .

وعاد يقول :

- «ثقى أننى لن أهتز أو أتخاذل . . .» .

- «أنا أعرفك . . .» .

امتلاً قلبه بالرضى والثقة ، وعاد يقول :

- «يجب أن يصمد الرجال للعاصفة . . .» .

- «الأمور تسوء يا أبا الحسن» .

- «لكل شىء نهاية . . .» .

- «والناس يموتون جوعاً ، أو يأكلهم العذاب والحزن

والحرمان خلف الأسوار . . السفالات تملأ كل ناحية . . .» .

قال وقد احتقن وجهه :

- «عندما يدوى الانفجار فلسوف يحرق كل الأوبئة . . .» .

- «والبراكين يا أبا الحسن قد تقضى على البرىء والمسيء

معاً . . .» .

- «الانفجار المنظم له اتجاه واحد يا حبيبتى . . .» .

وشعر بالخجل بعد أن تلفظ بكلمة «حبيبتى»، وارتبكت
هى الأخرى، غير أنه استدرك على الفور، وقال ملاطفاً:

- «فى السجن يتعلم الإنسان بعض الألفاظ التى تناسب
المقام . . .» .

قالت وهى تخفض من نظراتها فى حياء:

- «لم أتضايق لسماع هذه الكلمة . . إنها من أروع
الكلمات . . .» .

أفراح النصر تدق بين جوانحه، وفترة السجن بدت أمامه
كرحلة ممتعة، وذكرى رائعة، إنها طربت لكلمة «حبيبتى»
التي أفلتت منه . . قال وهو يشعر بنشوة عارمة:

- «سوف نحيا بإذن الله حياة جميلة . . .» .

- «وعندما يعود أبى، وتخرج أنت ظافراً من هنا . .
تكون أجمل وأروع . . .» .

عاد يتطلع إلى وجهها الجميل وهى صامته، كانت تبدو

أجمل من أى وقت مضى ، يكفيه أن يجلس ويتطلع لهذا الوجه الباهر الطاهر ، وتاه فى عالمها السحري الجميل ، وأخذ يغمغم : «وفى ليلى الطويل ، تشرق طلعتك علىّ فأنسى الأرق والعذاب والظلام . . أيضاًيقك هذا الكلام؟؟ وفى الأوقات الرهيبة حيث يتحول الإنسان إلى حيوان للتجارب ، وتجرى عليه عملية «غسل المخ» . . تبتسم لى عينك -أجل والله تبتسم لى عينك- فأصرخ فيهم : يا فسقة . . يا ظلمة . . يا كلاب . . وعندئذ أرتمى كالمخدر . . لا أشعر بشيء مما حولى . . وأظل أهييم فى حلمى الجميل حيث الزهور والربيع . . وهمسات الربيع يا حبيبتي طاهرة تذكرنى بحلاوة الحب ، وعظمة الله . . » .

ضرب الضابط كفاً بكف ، وهو يدخل ثانية ويقول :

- «انتهت الزيارة . . لن تشبعا من الحديث ولو بقيتما طوال النهار . . هيا يا أنسة . . » .

صافحته فى شبه غيبوبة ، ومضت خارجة ، كان يقف كالمسمر فى الأرض ، وعندما مشت كانت تمشى إلى الأمام

ووجهها ينظر خلفها . . إليه حتى اصطدمت بأحد الحراس
الذى صاح :

- «أفيقى من النوم . . » ، وعندما اختفت . . تبللت عيناه
بالدموع . . قال الضابط له :

- «لا يبكي الرجال . . » .

- «أنت لا تعرف كم أحبها . . » .

ضحك الضابط ، وقال فى بساطة :

- «أننى أرى هذا المشهد يومياً عشرات المرات حتى إنه لم
يعد يحرك فى ساكننا . . غداً تنزوجون ، وتنجبون أطفالاً . .
وتتشاجرون من أجل المال والنفقات وميزانية المنزل . . ولا
تكفون عن الصراخ والجدل . . » .

ثم قهقه الضابط ساخراً : «اسألنى أنا . . » .

قال أبو الحسن :

- «إنها شىء آخر . . إنها فوق الماديات والتفاهات . . » .

- «الحياة مادة . . » .

- «لكننى أشعر بغير ذلك . . .» .

قهقه الضابط ثانية، وقال :

- «غداً تفيق وتثوب إلى رشك . . .» .

وبعد فترة صمت ، قال الضابط وهو يجلس خلف
مكتبه :

- «حضرت حادثة عجيبة فى «جوكجا» العاصمة
القديمة . . . القصة طريفة جداً . . فتاة هربت من أحد عمال
«الأفران» ، وتزوجت منه على الرغم من معارضة أهلها
الفقراء . . كانت جميلة ، وكانوا يطمعون فى زوج غنى . .
لكنها لم تستمع لكلامهم . . تزوجت العامل وأنجبت منه
طفلين . . وكنت أنا فى «جوكجا» حيث أبلغت للانتقال مع
النيابة للتحقيق فى جريمة . . الفران قتل زوجته . . أتدرى
لماذا؟؟ لأنها رفضت أن تعطيه القرط الذهبى الصغير الوحيد
الذى تتحلى به كى يشتروا بثمانه أرزاً . . .» .

وعاد الضابط يضحك :

- «الأرز كان أهم لديه من حياة حبيبته وأم ولديه . . .» .

واستطرد وهو يهز رأسه مدعيًا الحكمة:

- «أنت تعيش يا أبا الحسن في جنة من الوهم . . .» .

قال أبو الحسن في إصرار:

- «بل أعيش في جنة حقيقية برغم كل شيء . . .» .

ضحك الضابط قائلاً:

- «لأن لديك من يكفيك من الأرز» .

تذكر الفقر المدقع الذي يعاني منه أبواه الآن، والبيت

الكئيب الخافت الضوء . . فغص حلقه بالدموع .



الفصل الثاني عشر

وأبو الحسن له والد عجوز قد بلغ الخامسة والستين، لكنه مصاب بالشلل النصفى لا يستطيع مغادرة البيت منذ ثلاث سنوات، ضعيف البصر، ثقيل اللسان، كان يرتق الأحذية القديمة منذ سنوات طويلة، ويكتسب رزقه من وراء هذه المهنة البسيطة، وكان مفخرته التي ترطب حياته بالفخر والرضا هو أنه استطاع أن يفتح باب التعليم أمام وحيده «أبى الحسن»، إذ أدخله فى البداية مكتباً لتحفيظ القرآن، ثم مهد السبيل لكى يلتحق بإحدى مدارس «شركت إسلام» أحد الجماعات الدينية السياسية الكبيرة فى البلاد، وكان نبوغه مدعاة لأن يواصل تعليمه حتى الجامعة، وفى أثناء دراسته الثانوية، أدرك أبو الحسن أن مهنة أبيه لم تعد تكفى، ومن ثم التحق بإحدى المطابع، كان يجمع الحروف ويعدها

للطبع فى المساء ، ويذهب إلى دراسته فى الصباح ، فاستطاع أن يسد حاجة البيت ، وكانت الأم امرأة صالحة مطيعة لا تطمع فى شىء سوى أن ترى ولدها وزوجها راضيين سعيدين ، وأصبح أبو الحسن هو العائل الوحيد للأسرة بعد مرض الأب .

غير أن اعتقال أبى الحسن فى الفترة الأخيرة كانت كارثة كبرى بالنسبة لهذا البيت الصغير ، الذى لم يستطع أن يدفع أجر المحامى المكلف بالدفاع عن ولدهما ، وكان أبو الحسن يدرك حرج الموقف ، لكن بعض زملائه فى الكلية تعاونوا فى تدبير المحامى ، فكان موقفاً نبيلاً لم يتوقعه منهم . . . ولم يكن الأب يكف عن السؤال :

- « ألم يعد أبو الحسن بعد؟ » .

فلا ترد الأم بغير الدموع ، ثم تقول من آن لآخر :

« أنا لا أدرى معنى لما يدور فى هذه الدنيا . . » .

وفى يوم آخر قال :

- «يا امرأة أنا جائع . . .»

قالت زوجته فى حسرة:

- «لم يعد لدينا شىء . . .»

- «إذن سنموت جوعاً إذا لم يعد أبو الحسن على

الفور . . .»

وأخذ يبكى . . . كان نصف فمه يتحرك ويرتعش . . .
وإحدى عينيه تغمض ثم تنفتح ، والثانية مفتوحة دائماً ،
والدموع تبلل الوسادة السوداء . . . ثم أخذ يصرخ بصوت
عال . . . وامرأته تربت على صدره الذى يعلو ويهبط فى
انفعال . . .

- «لم يبق لى فى حياتى غير العذاب يا امرأة . . .»

- «قل الحمد لله . . .»

- «الحمد لله . . .»

الشارع يموج بالحركة والحياة، والمواكب تمضى، وأعلام
خفاقة ترفرف فى الهواء . . . وشارة ضخمة على مركز

الحزب . . والصحف تلتخبها العناوين الحمراء والسوداء . .
والراديو يصرخ بالأغاني العاطفية العذبة، والأحاديث
السياسية الطنانة، وصور الرئيس تملأ شاشة التلفزيون،
والعربات الفاخرة تنطلق مسرعة في الشوارع . . وامرأة
عجوز تقف ذليلة وهي تمد كف الضراعة للسائرين، وتقول:

- «لله ما محسنين . . في سبيل الله يا مسلمين . .» .

وعادت في المساء منهكة القوى، لاهثة الأنفاس، ومعها
كمية قليلة من الأرز والدقيق، وقال زوجها الراقد في
فراشه:

- «لقد غبت طويلاً . .» .

- كان على أن أصبر حتى أحصل على ثمن طعامنا من
المحسنين . . هل أنت بخير؟» .

قال بصوت واهن:

- «نعم، لكنه لم يعد . .» .

ونظرت المرأة، فرأت صندوقاً من الكرتون .

- «ما هذا يا رجل؟؟» .

تنهد في غير قليل من الارتياح ، وقال :

- «جاءت فاطمة أطعمتني وسقتني . . وتركت لنا هذه
المأكولات ومائة رويية . . ثم انصرفت . .» .

وتنحج الرجل ، ثم قال في أسى :

- «لكم أحزننى أن ترانا على هذه الصورة!! كنت أريد
لابنى المظهر اللائق به . . تصورى . . لقد ظلت تبحث عن
بيتنا ثلاث ساعات . . لقد هدّها التعب وهى تخوض فى
أوحال الأزقة ، وتصطدم بكلابها وقططها ومشرديها . . إنه
لأمر محزن . .» .

لم تنطق الزوجة بكلمة واحدة ، كان قلبها يدق ، وعيناها
مخضبتيين بالدموع ، وسمعت زوجها يقول :

- «لا تتركينى وحدى مرة ثانية . . فقد كنت خائفاً ،
خيل إلى أن عزرائيل يقف على رأسى طوال الوقت . .
فكرت أنك قد تعودين وتجديننى جثة هامدة . . هيه . . البقاء
لله وحده يا امرأة . . خمسون عاماً من العمل الشاق ولا نجد

شيئاً نقتات به . . بل لا نملك قبراً ندفن فيه . . من حسن
الخط أن الميت . . أى ميت . . يجد مكاناً ينام فيه نومته
الأبدية . . هذا هو المكان الوحيد الذى تتساوى فيه . . .» .

وقامت الزوجة فى تكاسل ، ثم أشعلت بعض الأخشاب
الجافة لكى تعد إبريقاً من الشاي ، كانت تروح وتجيء وهى
شبه ذاهلة ، والعجوز المريض لا يكف عن الشرثرة المحزنة ،
وكلما وقع بصرها على فراش ولدها وكتبه وملابسه المعلقة ،
انهمرت الدموع ، وشعرت كأن مدى حادة تمزق قلبها دون
رحمة .

- «يخيل إليّ يا امرأة أننا عبء ثقيل على ولدنا حتى
وهو فى سجنه . . إنه حساس رقيق الشعور أنا أعرفه
جيداً . . لقد دعوت الله وأنا وحدى هنا أن يقصم ظهر
الجلادين والظالمين . . خيل إليّ يا امرأة أننى سمعت صوتاً
يقول : لقد أجيببت دعوتك يا عبد الله . . ثم دعوت الله أن
يكتب له الفرج . . فسمعت أيضاً هاتفاً يقول : لقد أجيببت
دعوتك يا عبد الله . . ومن ثم ترينى واثقاً أننى سألتقى به
يوماً ما . . سيأتى أبو الحسن يا امرأة . . .» .

وأخذ يضحك بطريقة تستدر الدموع، والمرأة تروح
وتحجى صامتة، ومن آن لآخر تنظر إلى زوجها في دهشة
وهو يثرثر، ولعلها ظنت أن الرجل قد أصابه مس من
الجنون... وعاد يقول:

- «الزقاق كله ممتلىء بالتعاسات، ونحن مثلهم... هنا
نتساوى في الشقاء، كما نتساوى في حفرة الموت...».



الفصل الثالث عشر

القصر الجمهورى الصيفى الذى يسكنه الرئيس، قصر فاخر عظيم، تحيط به حديقة غناء كبيرة، غرست فيها الرياحين وشتى أنواع الورود، ويمرح فى الحديقة كثير من الغزلان، والجداول تنساب رقاقة بين الأحجار ومغارس الزهور، وفى الجهة الخلفية للقصر أكبر معرض للأغراس النباتية، فيه كل أنواع أشجار العالم حتى النخيل والتفاح والزيتون والعب. . . كان الرئيس جالساً فى صالون فخم، يرتدى قميصاً قصير الأكمام، وإلى جواره بعض الصحف، وخاصة الصحف التى تمجده وتعطف عليه، إنه يتأمل صورته المنشورة فى إعجاب، ويردد بعض الكلمات المأثورة عنه والمكتوبة بخط كبير فى اعتزاز، إنها كلماته وهو يعرفها

جيداً، لكنه عندما يقرأها مطبوعة فى الصحيفة يشعر بنشوة عارمة، ثم أشار إلى أحد رجال الحرس أن يفتح «التليفزيون»، هناك بعض البرامج الخاصة التى تعجبه، أهمها برامج تتعرض لمجهداته ونضاله وأخباره ومقابلاته الرسمية، وبعض الاجتماعات المهمة التى يخطب فيها، ويأتى بعدها برامج الرقص العالمية، وغالباً ما يعجز عن السيطرة على نفسه وهو يشاهد الرقص على الشاشة الصغيرة، إذ سرعان ما يصفر أو يدق بأصابعه على منضدة أمامه دقات منغمة، أو يحدث بعض الإيقاعات بقدميه، أو يهز جسده ورأسه هزات متسقة . .

وانحنى حارسه الخاص أمامه، وقال :

- «فخامة الرئيس . . إن الزعيم فى الانتظار» .

- «فليدخل . .» .

دخل «الزعيم» باسمًا ناعم الملمس، تبدو عليه علامات الطيبة والإخلاص والمودة .

- «طاب مساؤك يا سيدى الرئيس . .» .

نظر الرئيس فى ساعته الأنيقة الثمينة ، وقال :

- «أهلاً بك . . جئت فى وقتك . .» .

ودار الحديث حول صحة الرئيس ، ومجهودات الطبيب الخاص ، وعلاجه الفعال ، وخاصة ما يتعلق منه بتقوية النشاط الجنسى ، وتحسين وظيفة الكلى ، وكان يتخلل الحديث بعض النكات المكشوفة التى يفهقه لها الرئيس ، ويلذ له سماعها ، ثم دار الحديث عن المرأة والجمال والشعر الذى كتبه الرئيس بنفسه ، وهنا قال الزعيم فى دهاء :

- «إن روائعك الشعرية تذكرنى بعبقرية طاغور شاعر

الهند العظيم . .» .

والزعيم يعرف أن الرئيس يقرأ كثيراً شعر طاغور

ويحبه ، فابتسم الرئيس وقال :

- «المرأة أروع قصيدة فى الوجود . .» .

- «هناك مئات القصائد المذهلة . .» .

قهقه الرئيس قائلاً :

- «إن لدى ديواناً ضخماً منهن» .

وكان يقصد بذلك أنه تعرف واستمع بعدد كبير من النساء الجميلات ، فضحك الزعيم حتى احمر وجهه ، وعاد الرئيس يربت على كتفه ، ويقول :

- «أنت تلميذ نجيب لى فى الخطابة . . .» .

وكان الرئيس من الخطباء الأفذاذ المعروفين ، فقال الزعيم :

- «سيدى الرئيس . . أنا لم أزل فى أول السلم . . أنت أستاذ الشعب ومعلمه الأكبر . . .» .

واكفهر وجه الرئيس فجأة ، وقال دون مقدمات :

- «أشد ما يزعجنى هؤلاء الجنرالات الحقراء . . أشعر أنهم يشلون حركتى . . .» .

قال الزعيم وقد أدرك أن الرئيس قد أعطى إشارة البدء فى الموضوع الخطير :

- «سيكون كل شىء على ما يرام يا سيدى الرئيس . . .» .

- «أريد أن يذبحوا كما تذبح الشياه . . .» .
- «هذا حكمك . . . حكم الشعب . . . وليس على جنودك
سوى الطاعة والإسراع فى التنفيذ . . .» .
- وكز الرئيس على أسنانه فى غيظ ، وقال :
- «أريد أن أرى الشعب وهو ييثق على جثثهم ويدوسها
بالنعال . . .» .
- «نعم سيدى الرئيس . . .» .
- «إن حركة الصراع يجب أن تسحق المعوقين . . .» .
- «نعم . . .» .
- «وقد أوصيت «قائد الحرس» بأن يكون صارماً . . .» .
- «سيدى الرئيس . . . كن واثقاً أن تخطيطنا ليس فيه ثغرة
واحدة . . .» .
- ستهز الثورة الدنيا . . . وفى يوم واحد سيتغير وجه الجزر
الخضراء . . . سنحكم جنوب آسيا كله . . . هكذا وعدت . . .
-

وستكون أنت القائد الذى يمضى خلفه مئات الملايين . .
فالثورة من هذه الناحية عمل عالمى وقومى مشرف . . .»

انتعش الرئيس لهذه الكلمات ، وقال :

- «إن التضحية بمليون أو مليونين من الحمقى شىء
بسيط . . وهو فى الوقت نفسه يعنى حياة جديدة تقدمية
لشعبنا العظيم . . .»

- «التطهير ضرورة ثورية . . .»

- «بالتأكيد . . .»

- «وهو يقضى على المعارضة نهائياً . . .»

- «هذا ما أؤمن به . . .»

وصمت الرئيس برهة ثم قال :

- «أريد أن تكون الحفلة الراقصة الليلة القادمة رائعة . . .»

فوجئ الزعيم بتحويل دفة الحديث مرة أخرى ، لكنه قال
على الفور :

- «ستكون الحفلة مضيئة بالعيون الجميلة» .

- «وأنا لى فى العيون شعر مذهل . . .»

قال وهو يحك قفاه:

- «وهل ستلقى بيان الثورة الأول يا سيادة الرئيس؟»

- «بالطبع . . لكن ألا تتوقع تدخلاً خارجياً؟»

- مستحيل . .

- «ولقد ابتدأنا فى اعتقال وخطف رؤوس الفكر

السياسى الدينى فى البلاد . . أغلبهم وراء الأسوار . .

وسنقضى عليهم نهائياً أثناء الثورة وفور استتاب الأمور

لنا . . كل شىء يمشى على ما يرام يا سيادة الرئيس . . .»

وعاد الرئيس يقول:

- «وماذا تظن الصدى الشعبى للثورة؟؟»

- «الشعب جائع لا وزن له فى الحقيقة إزاء هذه

الأحداث . . القوة وحدها تحسم الموقف . . والشعب أخيراً

مع المنتصر . . لقد انتهى عصر ثورات الشعوب

كشعوب . . .»

قال الرئيس فى شرود:

- «لكنه شعب مسلم . . .» .

- «أعرف . . ونحن نتظاهر بالإسلام . . وفى الإمكان

أن تؤمنا فى الصلاة عقب نجاحنا فى المسجد الكبير . . .» .

ضحك الرئيس بصوت عال ، وقال :

- «يا لك من شيطان !!» .

- «أنا لا أؤمن إلا بالقوة المادية التى أمتلكها . . .» .

- «وهم يؤمنون بالله» .

- «الله ليس مادة . . والمادة الحقيقية الوحيدة التى تتشكل

وتؤثر . . .» .

- «لشد ما أحب الفلسفة . . إننى أقرأ هذه الكتب

وكأنى فى خلوة صوفية . . .» .

ومرة أخرى يعود الرئيس للخروج من الحديث الأسمى

قائلاً :

- «وكيف حال زوجتك؟؟» .

- «غيورة إلى أبعد حد» .
- «إنها شاعرة ولو لم تكتب الشعر . . .» .
- «هى مرهفة المشاعر، وهذه نقيصة فيها . . .» .
- «إن زوجتك مهذبة وجميلة ورقيقة المشاعر . . لكنى على يقين أنها ستتغير كثيراً وهى ترى جث الجنرالات تتطوح فى الهواء والدماء تصبغ طرقات وشوارع جاكرتا . . سوف تكتب الشعارات بالدم . . الشعارات التى تكتب بالدم لها الخلود . . .» .



حينما عاد «الزعيم» إلى بيته فى المساء، وكانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء وجد فتاة تجلس مع زوجته تلبس ثوباً ضافياً فضفاضاً، وعلى رأسها شال أبيض، ودلف إلى حجرة المكتب، بينما لحقت به زوجته :

- «منْ هذه؟؟» .

- «ألا تعرفها؟؟» .

- «هى تزعم أنها ناقشتك فى الجامعة . . والتقت بك فى المنظمة . .» .

- «أبوها مفقود، و . . .» .

- «لا شأن لى بشىء كهذا . . .» .

- «لكنى وعدتها أن تقوم أنت بالبحث عنه . . .» .

- «لست زعيم عصابة . . .» .

- «لكن . . .» .

قاطعها قائلاً:

- «كفى عن هذا الحديث، إذ ليس لذلك من معنى سوى
إننا نخطف الناس . . إننا ندين أنفسنا إذن» .

قالت متلطفة:

- «إنه طاعن فى السن ولا خطر منه» .

قال وهو يصب كأساً من الخمر:

- «حقق محمد رسول الله انتصاراته بعد الخمسين . . آفة
البلاد هؤلاء العلماء . . .» .

- «فلنرحمها» .

- «العمل الثورى يعتبر الرحمة بالرجعيين هزلاً وحماسة . . بل وخيانة ثم إنها وأبوها أتفه من أن تهتمى بهما . . .» .

- «لكن مقابلتك لها تعنى الاهتمام بها . . .» .

- «ليس من أجلها كان اللقاء . . ولكن قصدت به الدعاية فى أوساط الطلبة . . ووجدت فكرها عتيقاً صلباً كالخذاء الملوث بالأوحوال . . .» .

وخرجت يائسة ، وأخذت تحاول فى رفق أن تعتذر لفاطمة بنت حاجى محمد إدريس ، وتمنيها الأمنيات الكاذبة ، وكان «الزعيم» يقذف فى جوفه بالكأس الثالثة ، ويبعث بنظراته المتلصصة من خلف الستار . . ليرى الوجه الطاهر الجميل الحزين ويتمتم فى تشف :

- «يالها من وليمة رائعة على السرير غداة النصر الأعظم . . .» .

الفصل الرابع عشر

مشت فاطمة فى الشارع الطويل ، جاكرتا مفعمة بالضياء ، وتروق لها العريفة والعبث أو لعلها مدينة الزوج فى يوم عيد غجرى النغم والصراخ والشجون ، رائحة القدم ، والعراقة تختفى وراء رواثها الحديث ، لكأنها تليس قناعاً يخفى معالمها . .

وانحرفت فاطمة من شارع إلى شارع على غير هدى ، هذا هو موقف السيارات الأجرة ، وأحد السائقين يصرخ برئيس الموقف :

- «الدور دورى ، فكيف تسمح لغيرى بأن يأخذ ركابى ويرحل؟؟ لأنه دفع لك الرشوة؟؟ ليست هذه أخلاق رجال» .

ويقف رئيس الموقف وهو رجل فى الأربعين، ضخم الجثة، قصير القامة، ذو عينين برآقتين، الشرر يتطاير منهما، ومن حوله ميليشيا خاصة، وينقضون على السائق المسكين ركلاً وضرباً، ويلهون به كدمية صغيرة تعسة، ثم يفترقون عنه والدم يسيل من أنفه وفمه، وهو يتملى منظر الدماء التى تصبغ رداءه صمتاً مقهوراً.

وتتمتم فاطمة فى أسى «دنيا» أهذه هى جاكرتا التى أعرفها؟؟ مستحيل.. . الناس كأنهم يرتعون فى غابة لا يحكمها قانون.

وتمضى فاطمة فى طريقها على غير هدى، لقد ملت البقاء فى البيت، وضافت ذرعاً بالتواجد فى الكلية، وأبوها لم يعد، وخطيبها رهن المحاكمة، وأبواه فى حالة من الضيق يرثى لها.. .

وركبت فاطمة «أتوبيساً» كبيراً، الزحام على أشده، ورائحة العرق والقذارة تزكم الأنوف، والناس يثرثرون بصوت عال مزعج مختلط يثير الغيظ، وفجأة يصرخ أحد الركاب:

- «حرامى .. أمسكوا به . . .» .

وساد هرج ومرج ، وتوقف الأتوبيس ، الناس يتدافعون كحيوانات فى قفص ، ونظرت فاطمة ، وجدت شاباً فى السابعة عشر ممزق الثياب ، كث الشعر ، يضربه الناس من كل صوب ، وهو شاحب الوجه ، وزائغ النظرات ، يتلقى الضربات حزينةً مكبوتاً دون أن يتكلم ، يتطوح بينهم كالذبيحة ، وجاء شرطى تقدم منه ، وربط يديه بحبل متين ، وأخذ المجنى عليه واثنين من الشهود ، ثم انصرف . . دمعت عينا فاطمة ، وقالت فى انفعال :

- «دنيا . . هذه هى جاكرتا الجميلة؟؟» .

وتركت الأتوبيس ، واستأنفت المسير ، ذاك هو المسجد الكبير ومكبر الصوت يردد الأذان وسط الضجيج والغوغاء ، المسجد ساكن رطب ، يجلله وقار وضوء خافت ، وبضعة رجال أغلبهم من كبار السن والمنبر كالليث العجوز الرابض من قديم ، وفكرت فاطمة فى تأدية الفريضة ، فدخلت من باب جانبي خاص بالحريم ، كانت وحدها ، وقلبها يخفق

وهي تؤدي الركوع والسجود، وفي عينيها دموع، ذكريات متزاحمة تحاول أن تفرض نفسها على صفاء فكرها، فتحاول جاهدة أن تبعتها عن ذهنها كي تتفرغ لما تردد من آيات ودعوات، وبعد الصلاة جلست تحوقل وتكبر وتحمد الله، وأفافت إلى نفسها فإذا المسجد خال، وإذا خادم المسجد، يضرب بخشبة على النافذة إيذاناً بالرحيل . .

وشعرت بقليل من الارتياح وهي تعود إلى الشارع، ورأت من بعيد ضجة كبرى وصفيراً وصياحاً، واقتربت من مصدر الضجة، ماذا ترى؟؟ يا إلهي، معركة حامية في مدرسة ثانوية تتبع جماعة أنصار الإسلام، ووجدت صراعاً عنيفاً ودماء، صورة للعدوان الصارخ الذي لا يرحم، وتساءلت في لهفة:

- «ماذا هناك؟؟» .

قال رجل يقف في ذلة متحسراً:

- «رجال الحزب يلقنون الطلبة وأساتذتهم درساً في الأدب» .

- «لماذا؟؟» .

- «لأن الأساتذة فى دروسهم يحذرون الطلبة من الإلحاد، ويدعونهم للاعتصام بالدين . . .» .

وخرج التتار على صدورهم شارات الحزب متفخى الأوداج يقهقهون ويضحكون فى استعلاء، ونظرت فاطمة، فإذا بأثاث المدرسة كومة من الدمار والفساد، وإذا بالإخوة من الطلبة والأساتذة يضمدون الجراح فى هدوء عاصف، وعدد من رجال الشرطة يشهدون المأساة وكأنما يتفرجون . . صرخت فاطمة فى انفعال هادر:

- «ليست هذه جاكرتا التى أعرفها . . .» .

وقصدت فاطمة بعدها إحدى دور الصحف ذات الصلة بأبيها استقبلها رئيس التحرير فى شىء من الحذر الممزوج بالأسف، وقدم لها فنجالاً من القهوة المحلاة، وغمغم:

- «ألم يعد أبوك بعد؟؟» .

هزت رأسها بالنفى، وعلق الرجل قائلاً:

- «لا أحد يدرى ما يحدث فى هذه الأيام . . .» .

روت له أحداث المدرسة، وعبث رجال الحزب،
وطلبت منه أن يكتب عن الموضوع، ويلفت النظر إلى هذه
المخالفات الخطيرة، فهز الرجل رأسه في يأس، وقال:

- لدى مئات الحوادث الغريبة . . الحادث الواحد كفيلا
بأن يهز العاصمة هزاً، لكن ما الحيلة؟؟ أصبح التعرض لهم
مجازفة كبرى . . قد يضعون المفرقات في الدار، أو
يعتقلون المحررين، ويلفون التهم لهم، انظري . . .

وأخرج لها بضعة صور وكمية من الأوراق، وأخذ
يقول:

- «إنهم يهاجمون مركزاً للشرطة في الجنوب،
ويختطفون شرطياً، ويعذبونه حتى الموت . . .»، ويفتح
درجاً آخر، ويخرج منه كمية من الأوراق، والتحقيقات
الصحفية ويقول:

- «وهنا بدأهمون محلات تجارية لأحد رجال المال
الإسلاميين ويخربونها، ويسلبون ما فيها . . .»، ثم يقف
أمامها بصورة لأحد أساتذة الجامعة، ويقول:

- «وهذا الأستاذ كان يتحدث في إحدى الندوات المسائية وأورد رأياً مخالفاً لرأى الحزب . . فما كان منهم إلا أن أعدوا له كميناً، ولم ينج من الموت إلا بأعجوبة . .»، وهز رئيس التحرير رأسه قائلاً:

- «وعشرات غيرها من الحوادث . .».

ثم عاد يقول وهو يعرض على شفته السفلى:

- «والحل؟؟؟».

- «إنه طوفان هادر يغرق كل القيم النبيلة . .».

هز رئيس التحرير كتفيه فى اشمئزاز، وقال:

- «الحل؟؟؟».

- «نعم . .».

- «الحرية . .».

- «كيف يا سيدى؟؟؟».

عندما تكون الحرية مكفولة للجميع . . تتضح عورات المنحرفين ويلقون جزاءهم العادل . .».

عادت فاطمة تقول :

«وما هو الطريق إلى الحرية؟؟» .

- «سواعد الرجل الشرفاء . . الكلمة أصبحت سجينة أو عاجزة عن فعل شيء . . .» .

وسادت فترة صمت قالت فاطمة بعدها :

- «أريد أن أعمل معكم فى الصحيفة» .

قال رئيس التحرير دون اكتراث :

- «حسنًا . . لكن لا تطمعى فى كثير من المال . . .» .

- «المال ليس الهدف . . .» .

- «يجب أن تعرفى أن الصحيفة تخسر باستمرار . . .

فليس لنا تدعيم من الخارج والسبق الصحفى هنا شبه منعدم لأننا لسنا على صلة وثيقة بالحكام . . ولا يمكننا نشر الصور العارية ، أو تمجيد أبطال المعسكرين الكبيرين فى العالم . . نحن نمجد الحقيقة . . ورجال الحقيقة يقاسون من الفقر والاضطهاد وقلة الشهرة . . .» .

قالت فى أسى :

- أعرّف يا سيدى . .

- «والإعلانات التى نحصل عليها قليلة جداً . . أتودين العمل بقسم الإعلانات؟؟» .

- «لا . . أريد أن أكتب رأى حراً . .» .

ابتسم الرجل فى عطف ، وقال :

- «الكلمات كثيرة . . والبلاغة متوفرة . . لكن الكلمة رخصت قيمتها فى سوق الزيف الكبير والشعارات الهادرة . .» .

ولما لم تجب فاطمة بكلمة قال الرجل :

- «حسناً . . لتبدئى من أول السلم . . خطوة خطوة . . لتكونى مندوبة للأخبار . . ثم كاتبة تحقيقات صحفية عن المسائل التى تهتم الناس . . ثم يسمح لك بكتابة التعليقات المقتضبة الواعية التى تكتب بطريقة مرنة بحيث تفلتين من قبضة الرقابة . . ثم . . إلخ . .» .

شعرت فاطمة بالارتياح لكلام الرجل ، إنها تحب العمل الصحفي لعله يساعدها على التعبير الصادق عما يعتمل في قلبها ، وهو في الوقت نفسه سوف ينسيها آلام الفراق بالنسبة لأبيها وخطيبها ، والصحافة جامعة من نوع آخر قد تحصل عن طريقها الكثير من المعرفة وخبايا الأمور ، واصطحبها رئيس التحرير في جولة سريعة بأنحاء الدار ، هذه قاعة المحررين ، وذلك مكان المحررات وهناك المكتبة والأرشيف ، وأسفل المبنى توجد المطبعة ، وفي طرف أقصى صالة الاجتماعات . . . إلخ .

عندما عادت فاطمة ، وجدت أمها في انتظارها متلهفة :

- «أين كنت يا ابنتي؟» .

- «لا تخافى على . . .» .

- «يكفى ما حدث لأبيك . . ليس من دأبك أن تتأخرى

هكذا . . .» .

- قالت فاطمة وهى تلقى حقيبتها على مقعد قديم :

- «سأتأخر كل يوم . . .» .

وشرحت لوالدتها ما حدث . . اعترضت أمها بشدة على فكرة العمل فى الصحافة، وكان رأى الأم أن هذا يضايق والدها، وفى الوقت نفسه قد يؤثر على دراستها إلى جانب المخاطر التى قد يتعرض لها أى صحفى من السلطات الحاكمة والحزب المسيطر، وحاولت فاطمة أن ترد على اعتراضات أمها، وتطمئن بالها، فلزمت الأم الصمت، وتركت لها حرية التصرف حتى يعود أبوها، وكذلك فعل باقى أفراد البيت . .

قالت الأم فجأة:

- «لقد أتت جميلة الليلة . . .» .

هتفت فاطمة:

- «لماذا؟؟؟» .

- «أخبرتني أن أباك بخير . . .» .

وثبتت فاطمة وأمسكت بيد أمها فى ضراعة، وقالت:

- «أين هو؟؟» .

- «لا أعرف . . وحذرتني من أن أعلن ذلك على الملأ
ولا انعكس بالضرر على أبيك . .» .

لوحث فاطمة بيدها في غيظ قائلة:

- «ما معنى ذلك؟ إنها تسخر منا، وتحاول أن تبرر ما
استولت عليه زوراً من أموالنا . .» .

- «لقد أرتنى مكتوباً بخط يده ومزقته على الفور . .» .

وقفت فاطمة صامتة برهة، ثم قالت في شرود:

- «إذن هو في جحيم الحزب» .

- «هذا ما أظن» .

وظلت فاطمة ليلتها تفكر في الأمر، أيمن أن تثير ضجة
حول موضوع اختفاء أبيها؟ ماذا لو كتبت تحقيقاً صحفياً عن
كل ما جرى؟

ماذا لو كتبت «بالمانشيت» الكبير في صدر الصحيفة هذا
العنوان «جميلة وسر الاختفاء!!» وراقت لها الفكرة،

وهبت من فراشها، وأخذت تكتب . . وتكتب . . حتى
أوشك الفجر على الانبلاج . . « .

وفى اليوم التالى هرولت إلى رئيس التحرير وعرضت
عليه الأمر، قال الرجل بهدوء يحسد عليه:

- « ما هكذا تكون البداية . . » .

- « إنه موضوع مثير . . » .

قال الرجل فى شدة:

- « أبوك ليس سلعة » .

- « أبى صاحب قضية عادلة . . » .

- « لكنك تفكرين فى المجد الصحفى اليوم أكثر مما

تفكرين فى أبيك . . » .

هتفت فى انفعال:

- « إنك تهيننى . . » .

سدد إليها نظرات حادة، حاولت أن تهرب منها فلم

تستطع، ولجأ الرجل إلى طريقة أخرى فقال:

- «ماذا لو أنكرت جميلة كل شىء؟؟» .

- «لا شىء . . .» .

- «تذكرى أنك مندوبة للأخبار فقط . . مجرد مخبر

صحفى . . .» .

- «نعم . . .» .

وأمسك رئيس التحرير بالأوراق التى سهرت طول الليل
فى تدبيجها، ثم مزقها فى هدوء، وقذف بها فى سلة
المهملات، ورأى وجهها يتفجر بحمرة الغضب، فهمس:

- «الجميع يعرفون الحقيقة . . وتداولها همساً بين الناس

أشد تأثيراً من نشرها فى الصحف . . كثيرون يتحدثون عن

أبيك . . والناس يتناقلونها بمزيد من الحواشى والتحليلات

فى حرية تامة . . أما كتابتها بالأسلوب القانونى الدقيق

فسيفقدها الكثير من الغموض الرائع، والإثارة الكبيرة . .

استمعى إلى كلمات رجل خبر الحياة . . .» .

واعتدل الرجل فى مجلسه، ثم قال:

- «لنا أسلوب آخر فى الكتابة فى الحياة الفاسدة فى مجتمعنا . . فمثلاً . . تصوير حفلة راقصة كبرى يحضرها الرئيس ، والحسناوات الفاتنات وزجاجات الشمبانيا ، وكبار رجال الحزب . . تظهر بوضوح ما نريد قوله فى عشرات المقالات . .

حادث انتحار . . جريمة قتل . . سرقة بالإكراه . . خيانة زوجية . . كل هذه الأحداث لها دلالات عميقة ، تظهر سوءات العصر التعس الذى نعيشه . . يجب أن تفهمى أن التعبير المباشر أضعف وسائل التعبير فى الأمور الاجتماعية والسياسية . . أنه لا يصلح إلا للدراسات العملية المجردة كالكمياء والطبيعة . . إلخ . . إننا يا ابنتى نبرز شخصية من الشخصيات ، ونسلط عليها الأضواء ، ونبالغ فى مقدرتها وسلطتها كى نقضى عليها . . إنها وسيلة غريبة من وسائل الهدم والانتقام ، أليس كذلك؟! . .

ونظرت فاطمة إلى الرجل المحنك فى إعجاب ، وأشرق وجهها بكثير من الرضا والافتناع ، وتمتمت فى هدوء :

- «سأنفذ نصائحك . . .» .

وبعد فترة وجيزة من التفكير قالت :

- «ألم يكن أبى إذن على حق حينما جاهر علانية بنقده
للنظام الحاكم ، ونذالة رجال الحزب؟» .

تنهد رئيس التحرير فى ارتياح ، وقال :

- «كل شيخ وله طريقة . . وهناك كثيرون يروق لهم
طريق أبيك . . والنضال فى حاجة إلى شهداء لا يرهبون
الموت أو السجن . . ومن يدرى لعل أباك أشجع وأصلب
قلبًا منا نحن الذين نتخفى وراء المهارات الفنية ، والخدع
السينمائية إن صح التعبير» .

وتنحنح وكست وجهه سحابة حزن ، وقال :

- «أبوك رجل عظيم ، وهو رجل عاقل ويدرك أن هناك
أساليب شتى للنضال . . ولقد اختار الطريق الصعب . .
والذين يحملون السلاح هم قمة الشجاعة . . دعى هذا
الأمر يا ابنتى فهو بالغ التعقيد . .» .



الفصل الخامس عشر

- «أنانج» . . أيها الشرطى البائس . . نريد أن نتخلص من هذا الرجل . .

وقف مأمور السجن بالكأس الفارغة بعد أن شربها حتى الثمالة، ثم نظر بعينين حمراوين صوب «أنانج» الضخم الجثة، ثم قال:

- «الموت شىء بسيط يا «أنانج» . . أنفاس تصمت وينتهى الأمر . . أو قلب يتوقف عن العامل، ثم يتحول الكائن البشرى إلى مجرد كومة من اللحم تثير التقزز . . هل هذا هو الإنسان؟ لست أدرى لماذا نحزن ونرهب الموت؟؟ حاجى محمد إدريس عاش أكثر مما يجب . . كان المفروض أن يموت يكون فى حرب الهولنديين وكل ذلك جائز . . إنه

ميت لا محالة، ودورنا أن نعجل بهذا الأمر حتى نريحه ونريح أنفسنا . . ونقدم بذلك خدمة كبرى للحزب . . وبهذه المناسبة سيكون لك شأن كبير يا أنانج . . .
لقد رفعت عدة تقارير بشأن ترقيتك . .

كان الجاويش أنانج على جانب كبير من الغباء، ضخم الجثة، جامد النظرات ميزته الكبرى الطاعة . . تنفيذ الأوامر مهما كان الأمر . . في المعارك يتقدم لأن قائده يريد ذلك . .
خُلِقَ ليكون عبداً، وغمغم «أنانج»:

- «دائماً أنفذ ما تأمرون به يا سيدي القائد . . .»

- «أعرف . . .»

- «هذا أمر تافه . . .»

- «بعض الحمقى من زملائك أرى في عيونهم العطف على هذا الرجل على الإطلاق . . .»

وعاد «أنانج» يضحك بطريقة أدهشت القائد الثمل، فقال له:

- «ما الذي يضحك؟»

- «كنت أعرف داعرة .. أحببتها من كل قلبي .. كانت نحيفة لكنها مثيرة لأبعد مدى .. أحببتها أكثر من أمي .. أعطيتها كل ما تريد حدود طاقتي المادية .. حسناً .. كان ذلك منذ خمسة عشرة عاماً .. ذات مساء طردتني من بيتها .. نظرت فوجدت بالداخل رجل .. كنت أريدها لنفسى .. ما معنى أن أتلظى بالحرمان؟؟ بكل هدوء أخرجت خنجري وذبحتها ..» .

هتف القائد فى انفعال :

- «ذبحتها؟؟» .

- «نعم .. كان الرجل يرتعد بالداخل .. وعندما أطبقت عليه كانت عيناه تعبران عن رعب مريع .. هناك صنف من البشر لا يتعلم درس الحياة إلا فى اللحظات الأخيرة للأسف .. ولكن لا قيمة لذلك .. مزقته بخنجري كثوب قديم واهن ..» .

وجلست أضحك .. تصور .. كانت فتاتي أروع ما تكون وهى ميتة .. كنت أضحك وأنا أبكى .. كانت تلك

جريمتى الأولى . . أنا لا أسمىها جريمة، الجريمة هي أنها
تركتنى . . .» .

قال القائد:

- «هل شربت شيئاً الليلة؟؟» .

- «نصف ليتر من مشروب رخيص ذى طعم
حارق . . .» .

أخرج القائد بضعة روبيات، وقدمها إليه وهو يترنح:

- خذ ولا تشرب إلا النوع الجيد بعد الآن . . تناولها
أنانج فى امتنان، وهمس:

- «عشت يا سيدى . . .» .

وتذكر «أنانج» أن الأوامر السابقة تقضى بعدم القضاء
على السجين، وذكر قائده هو الآخر بذلك، فرد القائد
قائلاً:

- «إنى أنفذ الأوامر بتصرف . . .» .

ثم وضع يديه على حافة المقعد، وقال:

- «ماذا لو خرج هؤلاء السجناء أحياء . . إنهم تهديد دائم لى . . بقاؤهم يثقل على قلبى . . بلادنا واسعة ، والحزب لا يستطيع أن يحمينا دائماً . . ومن يسقط منا لا يجد من يحميه . . أليس هذا مؤسفًا؟؟ حاجى محمد إدريس يربكنى . . جعلنى أشك فى كل القيم التى آمنت بها . . إن كلماته تعذبنى . . ورؤيته تعذبنى . . إن له قوة من نوع غريب . . بفلسفتى التى أعتنقها . . أكره أن يحدثنى أحد عن الله . . وأنت يا «أنانج» أتؤمن بالله؟» .

قال الشرطى فى لعثمة :

- «أنا أو من بتنفيذ أوامر قائدى ، ولا أفكر فى شىء غير ذلك» .

ضحك القائد ، وقال :

- «أنت رائع . . أيها الثور الجبار . .» .

-المساء . . والصمت . . والسجن الكبير ، وحاجى محمد نائم فى زنزانه ينبعث عنه غطيط خفيف ، ومن آن لآخر يتقلب على جنبيه ، ويردد كلمات التوحيد وهو

كالحلْم، أو يصلى على خير الأنام، وفتح باب الزنانة
السوداء، وامتدت يد تقول:

- «حاجى محمد.. حاجى محمد..».

هب حاجى محمد من نومه وقلبه يدق، وقال فى استسلام:

- «ماذا؟ أهى جولة أخرى من جولات التعذيب؟ ألا

ترحمون؟».

وسمع عبر الظلام صوتاً يهمس:

- «بل جئت لأنقذك..».

- «من أنت؟؟».

- «أنا نج؟؟».

- «مستحيل.. أنت قاسى القلب لا تعرف العطف..».

- «استمع إلىّ جيداً.. إنهم يريدون قتلك.. يجب أن

تصدقنى هذه المرة.. لقد كلفنى القائد بتنفيذ حكم الإعدام
فيك..».

أفاق حاجى محمد لنفسه تماماً، وأخذ يستعيد كلمات

«أنانج» فى تمهل ، ويتذكر تصرفاته ومعاملته البشعة
للسجناء ، وقال :

- «لكن سياطك يا أنانج لم تزل على ظهري . . تقرحاتها
تؤلمنى باستمرار . . .» .

- «أعرف . . وقد جئت هذه المرة لأكفر عن خطاياى
لعل الله يغفر لى . . .» .

تنهد حاجى محمد فى حيرة ، ثم عاد إلى رقدته ، وهو
يقول :

- «أنا رجل طاعن فى السن ، وقد أسلمت أمرى لله . .
ولم أفر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . . .» .

- «أيها الأحمق إنك تضيع حياتك هدراً . . .» .

- «ولم أفر؟ إننى لم أرتكب جرماً . . .» .

- «هذا لا يهم . . هذا المكان لا قانون فيه ولا منطق . .
إرادة القائد هى كل شيء . . .» .

- «وفوقها إرادة الله . . .» .

جذبه أنانج من طوقه ، وهزه فى عنف وهو يصرخ :

- «إنك تفقد الفرصة المتاحة لك إلى الأبد . . .»

وعاد حاجى محمد يفكر ، ثم قال :

- «وكيف نخرج؟؟ الحراس يحيطون بالسور . . وهم

يطلقون الرصاص على أى شبح يتحرك . . .»

- «لا شأن لك . . لقد دبرت كل شىء . . وعلى بعد

خطوات سيارة تنتظر . . وعلى الشاطئ قارب صغير . .

والقائد نائم . . .»

قال حاجى محمد :

- «لست مرتاحاً لهذه الفكرة يا ولدى . . .»

- «افهمنى . . .»

- «الناس هنا يموتون من آن لآخر . . وفى المعتقل ما

يقرب من ألف رجل . . إن الواحد من المسجونين ليخطئ

خطأ هيناً فإذا بالكدر يعم السجن كله . . ماذا لو هربت

سينصب العقاب على التعساء الذين يسجون هنا . . وقد

يحصدونهم بالرصاص . . أنا لن أترك هذا المكان إلى أن

يشاء الله . . .»

- ركله أنانج فى عنف ومضى . .
- وفى اليوم التالى قال القائد «لأنانج» :
- «ماذا تم؟؟» .
- قال «أنانج» .
- «فشلت الخطة» .
- «لماذا؟؟» .
- «رفض الهرب . .» .
- «هذا يثيرنى أكثر . .» .
- «لو شئت خنقته فى زنارته . .» .
- «يجب أن يقتل وهو يحاول الهرب . . هذه خطتنا ولا بد من تنفيذها . .» .
- «وماذا أفعل يا سيدى القائد؟» .
- «لا شأن لى . .» .
- «حسنًا . . دع الأمر، وكن واثقًا من تنفيذة الليلة . .» .
-

وأناج يقضى معظم وقته فى السجن، يعشق الإقامة فيه، ويتضايق إذا خرج منه، وتجول فى المدينة أو القرى المجاورة، فالناس هناك لا يعرفون قدره، ولا يؤدون له ما يستحق من احترام. . لكنه إذا مشى فى السجن احترامه المسجونون، وارتعبوا لرؤيته، وحيوه بأدب، وزملاؤه لا يسيئون إليه؛ لأنهم يعرفون دوره القدر، وصلته الوثيقة بالقائد، ومع ذلك فإن الأوقات القليلة التى يقضيها فى الخارج ذات نكهة خاصة بالنسبة له، فهو لا يقصد إلا امرأة تبيع نفسها يقضى بين أحضانها الليل كله، ويدفع لها قدرًا كبيرًا من المال، أو يدلف إلى إحدى دور السينما الرخيصة ليشاهد رواية من روايات رعاة البقر. . وما عدا ذلك فليس أحب لديه من أن يقضى وقته فى السجن مستمتعًا بسلطانه الذى لا يحد. . لقد خلق ليكون سجانًا، موهبة وُلد بها واستطاع تنميتها وتربيتها خلال سنوات العمل المثير فى السجن تحت رئاسة زمرة من ضابط الاستخبارات الذين يتبعون الحكومة المركزية اسمًا، ويأتمرون بأوامر الحزب فعلاً. وظل حاجى محمد يفكر فيما جرى بالأمس، أهى

- «لا شيء . . . لكنهم لا يحققون . . . إنهم يتسامون
بعذابي بطريقة رهيبة . . .» .

- «أخرس وإلا حطمت جمجمتك . . .» .

وسار حاجي محمد أمامه يظلع . . . لشد ما تؤلمه ركبته
اليمنى إنه لا يكاد يطيق آلام الروماتيزم المفصلي الذي ازدادت
حدته فى هذه الأيام، ونظر حاجي محمد فلم يجد القائد . . .
ولا الطاولة . . . ولا الكأس بجوار زجاجة الويسكى . . . ولا
الكوكب الليلى الذى يتسلى بعذاب الأبرياء . . .

- «لا أحدهنا . . .» .

قال أنانج فى قحة :

- «لا شأن لك . . . تقدم . . .» .

- «إلى أين!!!» .

- «أترى ذلك الباب الصغير الخلفى . . .» .

دقق حاجي محمد بعينه الضيقتين، وقال وهو يشير بيده
المرتعشة .

- «أهو هذا؟؟» .

- «تقدم . . .» .

- «لكنه يؤدي إلى الخارج حسبما أعتقد . . .» .

- «لست أنت الذى تختار مكان التحقيق . . .» .

- «أعلم . . .» .

- «الجلسة هناك فى ملحق قريب من السجن . . .» .

- «الأمر لله . . .» .

وخرج الاثنان من الباب «الدنيا فسيحة . . وأضواء خافتة تظهر من بعيد، إنها أضواء السفن التى تجوب البحر، وغمغم حاجى محمد هو يملاً رثتيه بالنسيم الطازج الحلو:

- «يا دنيا الله . . ما أحلى الحرية!!» .

ودوت رصاصات متتابعة كانت تومض فى جنون، ماذا

هناك؟ وصرخ «أنانج»:

- «لقد أصابونى . . إنه لخطأ فادح . إننى أموت . . .» .

وارتمى حاجى محمد صوبه، وأخذد يتحسس بيديه
المرتعشتين التراب البارد حتى اصطدم بأنانج الملقى على
الأرض:

- «هل أصابك مكروه يا ولدى؟».

كان «أنانج» يخور كثور ذبيح، وكان يحاول التكلم فى
صعوبة بالغة، ويقول:

- «إنه لخطأ فادح . . سيعاقبهم القائد عقاباً لا رحمة فيه» .

وشعر حاجى محمد بالآلام رهيبه فى عموده الفقرى من
أسفل، حاول أن يخطو فلم يستطع، تحسس ظهره بيده
المرتعشة فشعر بلزوجة الدم وسخونته:

- «لقد أصبت أنا الآخر . . ما معنى ذلك كله» .

وسرعان ما دوت الصفارات، وأضيئت الأنوار
الكاشفة، وهول العشرات من أفراد كتبية الحراسة
المسلحين، وتجمهروا حول المصابين، وفى دقائق أتى القائد
الذى نظر إلى جثة «أنانج» بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة:

- «هذا الخائن أرا! أن يُهرَّب خائناً مثله . .» .

ثم ركله بقدمه فى احتقار، ونظر إلى حاجى محمد
إدريس، وقال فى دهشة:

- «وأنت ألم تمت بعد؟؟ حسناً . . انقلوه إلى غرف
الإسعاف . .» .

فى اليوم التالى كان الحادث مثار جدل بين طاقم الحراس
فى السجن من سجانة وصف ضباط وضباط، وتهامس به
المعتقلون الذين طبقت عليهم التعليقات الصارمة،
والعقوبات الرادعة، وحرموا من الطعام لمدة يوم كامل . . .
وفى مجلسه الخاص أثناء تقارع الكؤوس، قال القائد
وهو يقهقه فى هستيرية:

- «أنا نرجو أن يكون حافل بكل ما
نرتكبه من جرائم . . وهو غيبى . . يستطيع أى عدو فى الثورة
المضادة أن يستغله ضدنا . . لشد ما ارتحت لمصرعه لقد
دبرت ذلك كله . . غير أن الذى ألمنى هو أن حاجى محمد
نجأ بأعجوبة . . وهذا يثير فى نفسى شكوك، أياكون لهذا
الرجل قوة سحرية خارقة؟» .

وجلس حاجي محمد متفكراً في غرفة الإسعاف بعد أن
ضمدوا له جرحه ، واستخرجوا له الرصاصة على يد طبيب
لهم ، وكان يغمغم في أسى عميق وحزن بالغ :

- «مسكين أنانج . . لقد أراد إنقاذى فراح ضحية أريحته
أنا لم أكن أريد الهرب . . رحمه الله» . . نظر إليه أحد
المضمدين فى سخرية ، وقال :

- «أنت حاجي طيب . . لقد عاش أنانج كلباً ومات
كلباً . . لقد دبّر لك الهرب شائعة تقول بأن القائد أراد
التخلص منكمما . . القائد هو الذى رسم ودبر كل
شئ . . .» .

نظر حاجي محمد حوله فى حيرة ، وقال وعيناه
مغروقتان بالدموع :

- «يا خفى الألفاف . . .» .



الفصل السادس عشر

قال الزعيم لزوجته وقد ألحت عليه مساعدة فاطمة،
وإلقاء الضوء على قضية أبيها المختفى: «عزيزتى . . يجب
ألا تشغلى بهذه الأمور التافهة».

- «إنها مهمة إنسانية».

- «صدقيني . . أنا لا أعلم شيئاً عنه . .».

- «أليس هذا غريباً؟؟».

- «وما وجه الغرابة فى ذلك، إن حماقة الرجل لا شك
هى المسئولة عما جرى له، هناك احتمال بأن بعض شباب
الحزب قد ضاقوا به ذرعاً . . لكنى لا أعرف، إن للمنظمات
الحزبية التابعة لنا سلطة محلية، وكل زعيم يتصرف حسبما

يرى . . لا يمكن أن يؤخذ رأى فى كل شىء . . . إننا أكثر من
عشرين مليوناً الآن . . .» .

وأخذ يشرح لزوجته كيف أن تلك الفتاة «فاطمة» كانت
فى منتهى القحة والجرأة وهى تناقشه فى الجامعة على مشهد
من الطلبة جميعاً، وكيف أنها أتت إلى المنظمة وحاولت أن
تسفه فكره وتحمل عليه، وشرح لها كيف أن الفتاة مدفوعة
من جهات مشبوهة لمضايقته والتشهير به، فهى من الجناح
النسائى لحزب ماشومى، وأخبر بما حدث من «أبى الحسن»
فى الجامعة، فقد أثار الاضطراب والفتنة وأطلق شعارات
عدائية ضده وضد الحزب، ووضع الملصقات الوقحة ثم
ضحك الزعيم، وقال:

- «تصورى أنها زعمت لعدد من الناس أننى أطلب منها
الزواج؟» .

قالت وهى ترمقة فى شك:

- «هذه الفتاة صادقة دائماً . . .» .

دق بكفه على جبهته، وقال:

- «يا لك من غيورة!!» .

- «أنا أعرفك . . .» .

- «أنا لا أفكر فى اصطیاد قذرة مثلها . . .» .

- «أنت لا تفرق بینهن . . .» .

قال وهو یغمز بعینه:

- «أنا ذواقه، وليس لدى وقت للعبث الواسع» .

وبعد أن خرج استدعت زوجته «جميلة» عضوة المنظمة؛ لأن فاطمة كانت قد أكدت لها أن جميلة تعرف شيئاً عن سر أبيها، ولما حضرت جميلة كانت ترتجف، طمأنتها وسألتها عن المنظمة ونشاطها وتدريباتها فى القاعدة الجوية، وسعدت جميلة أيما سعادة وهى تسمع لزوجة الزعيم، وأخذت تلقى عليها بعض الأسئلة التى تشغل بال أفراد الحزب، وكانت جميلة تجيب فى ثقة تدل على إلمام تام بمجريات الأمور، وأخيراً تحدثت الزوجة عن حاجى محمد إدريس واختفائه، فردت جميلة على الفور قائلة وقد شحب وجهها:

- «أنا لم أتقاض منها رويية واحدة . . .» .

قالت الزوجة فى دهشة :

- «وما دخل الروبيات فيما نتحدث فيه؟؟» .

إنها لم تثر موضوعاً كهذا . . .

اطمأنت جميلة ، والتقطت أنفاسها اللاهثة ، وعادت

تقول :

- «حاجى محمد رجل خائن . . .» .

- «أعرف . . .» .

- «وقد تكفل رجال الحزب بتأديبه» .

- «هل قتلوه؟؟» .

قالت جميلة :

- «لا يا سيدتى . . لكنه محجوز فى مكان لا أعرفه حتى

نضرب ضربتنا . . وبعدها نتصرف فيه . . .» .

- «أتعرفين مكانه؟» .

- « لا يا سيدى . . . » .

- « إذن فلتخبرى المسؤولين نيابة عن الزعيم أنه لا يصح الإضرار به حتى تخين ساعة إطلاق سراحه . . . » .

- « أمرك يا سيدتى . . . » .

ارتاحت الزوجة لهذه النتيجة كخطوة أولى ، لم تكن تكثرث بمصير معارضيها السياسيين قبل ذلك ، بل كانت متحمسة للقضاء عليهم من أجل مصلحة الثورة ، لكنها تأثرت هذه المرة بكلمات فاطمة ، وأعجبت بعقلها وإخلاصها وشجاعتها وجمالها ، وزاد من احترامها لفاطمة أن هذه الفتاة الفقيرة الضعيفة لم تستلم للإغراء ، ووقفت صلبة طاهرة في وجه الإغراء والتهديد ، ولم ترتم على أعتاب أحد ، ولم تبغ نفسها للشيطان في هذه الأيام السوداء التي أصبح الشرف مجرد وهم كاذب ، وبلاهة مفرطة . .

ذهبت فاطمة لدار الصحيفة التي تعمل بها ، الصحفيون يجلسون ويحتسون أكواب الشاي الساخن لكنهم يثرثرون عن أحداث كبيرة قد بدت نذرها في الأفق ، وكل واحد منهم يروى حادثة :

«الأسلحة الخفيفة تندفق على شواطئ الجزر» .

«أصبح ميليشيا الحزب مدربة تدريباً جيداً» .

«زعماء الحزب يلقون الخطب النارية فى أنحاء البلاد، ويهددون الرجعية، وينذرون بإقامة المشانق . . وسفك الدماء» .

«كثرت حوادث الاختطاف والاغتيال والاعتقال . . .» .

«الجيش تحكمه قبضة قوية . . وجنرالاته الطيبون نائمون» .

قال شاب صغير ممسك بالقلم :

- «وما مصيرنا نحن؟؟» .

ردت فاطمة فى يأس :

- «تغلق الجريدة، ثم يساق محرروها كالأغنام إما إلى الموت، وإما إلى السجن . . .» .

رد شاب طويل الشعر، طويل السوالف :

- «لا شأن لى بكل هذا، فأنا مندوب فنى لا أعرف شيئاً
غير المسرح والسينما وحفلات الرقص . . .» .

وقال زميل يجلس إلى جواره:

- «وأنا محرر بالصفحة الرياضية . . لا أتحدث إلا عن
بيليه ملك الكرة . . ودى ستيفانو . . وياشين الروسى . .
وكلاى . . .» .

وصرخت فاطمة فى حدة:

- «إننا نلهو . . وعندما تنقض الصاعقة . . فستنهدم
الدنيا على رؤوسنا جميعاً . . أتعرفون قصة القرية
الظالمة؟؟» .

وعاد الجميع يرشفون أقداح الشاي . . ويكتبون فى
صمت .



الفصل السابع عشر

فى اليوم المشئوم أعطى الكولونيل قائد الحرس الجمهورى إشارة البدء فى اندلاع الثورة، وكان قد جهز عدة مجموعات مكونة من الحرس، ومن جبهة شباب الحزب لاختطاف ثمانية من كبار جنرالات الجيش المعروفين بعدائهم للحزب وتسلي المتأمرين تحت جناح الظلام.. هذا هو بيت قائد القوات البرية، والذى لفت الأنظار بالأمس القريب إلى تسليح رجال الحزب وتدريبهم واستعدادهم للقيام بحركة مخربة.. لا بد من البدء به.. إنه عدو لدود للحزب..

استيقظت أسرته المسكينة على صوت طلقات رصاص على الباب، وكان المهاجمون قد كسروا الحاجز بينادقهم،

واندفعوا إلى داخل البيت بمسدساتهم، وسرعان ما استيقظ الجنرال وزوجه وأطفاله الثمانية، وكان قد قُتل حرسه الخاص، وسألهم ماذا تريدون؟؟

- «الرئيس يريدك . . .» .

- «حسنًا فلتنصرفوا، وسأذهب إليه بمفردى . . .» .

- «لا بد أن تأتي معنا . . .» .

- «هل معكم مكتوب بذلك . . .» .

- «الأوامر شفوية . . .» .

- «فلتذهبوا وسأخاطبه بالتليفون . . .» .

وانطلقت الرصاصات على القائد فجأة، فسقط قتيلًا وسط صراخ زوجه وأطفاله الثمانية وخدمه، ثم جر الشائرون جثته، ووضعوها في سيارة وانطلقوا إلى القاعدة الجوية التي تبعد خمسة عشر كيلو مترًا عن جاكرتا . . .

وكذلك تم اختطاف وقتل عدد آخر من الجنرالات وأفلت أحدهم من الاغتيال بما يشبه المعجزة . . . ففي آخر الليل

سمع الجنرال ضجيجاً على غير العادة، مما أثار الانزعاج،
ولوحظ أن أبواب البيت تفتح قسراً، وأن الضجة تقترب،
وأسرعت الزوجة نحو الباب، وسرعان ما أغلقته وعادت
تقول:

- «لا تخرج . . فالوضع مريب . . إن هناك ثلة من
الحرس الجمهورى مدججين بالسلاح . .» .

- «مستحيل . . لا بد أنها مؤامرة تحاك ضدك . .» .

- «أين سلاحى . .» .

- «انتظر . .» .

كانت ابنته الصغيرة تقف مشدوهة، إنها تبلغ من العمر
خمس سنوات، ومع ذلك أدركت بغريزتها أن أمراً مخيفاً
قد أحدث الانزعاج والاضطراب فى البيت:

- «ما هذا يا أبتى . .» .

- «اهدئى يا ابنتى فلن يحدث غير الخير . .» .

- «أنا خائفة . .» .

ضمها إلى جواره فى حنان، وقال :

- «كونى مطمئنة يا حبيبتى . . .»

والتفت الجنرال إلى زوجته، وقال :

- «ليست هذه المرة الأولى التى أخوض فيها الموت . . .

والأعمار بيد الله . . .» .

- «الشجاعة بدون حكمة لا معنى لها يا زوجى

الحبيب . . .» .

- «أعرف . . .» .

وفتح الباب ونظر، وإذ بجندى من الحرس يرفع بندقيته ليطلق الرصاص على الجنرال، وسرعان ما تراجع إلى الخلف وأغلق الباب فى لمح البصر، وانهالت الطلقات صوب الباب، لكن القائد وزوجه وابنته استقلوا أرضاً تفادياً للطلقات المجنونة :

- «إنها الخيانة يا زوجتى تحيط بنا من كل جانب . . .» .

- «أفهم شيئًا مما يدور . . وإن كنت أرجح أن يد
الإرهاب الحاقدة تحاول أن تحرق أمن البلاد وسعادتها . .» .
وابتداً المهاجمون فى تكسير الباب الغليظ المغلق ، وقدمت
أخت القائد وحاولت الخروج هى والزوجة والصغيرة . .
لقد انهال عليهن الرصاص ، بينما دفعت الزوجة زوجها
صوب الحمام . . ثلاث رصاصات استقرت فى قلب
الصغيرة فلفظت أنفاسها . . أصيبت الأخت بأعيرة نارية
قاتلة وكذلك الزوجة . . أما الجنرال فقد وثب إلى داخل
السفارة المجاورة لبيته وبقي بها حتى الصباح . .
وفى القاعدة الجوية كان حشد كبير من نوع آخر ، رفقاء
الحزب ، وزعماؤه وعدد من كبار الضباط يحيطون بالأبرياء
من جنرالات الجيش والأموات ، ويمثلون بجثثهم أشنع
تمثيل . . والكئوس تدور والقهقهات يتردد صداها فى
الآفاق ، إن الأمور تمضى حسب هوى المتأمرين ، ووضع
الرئيس يديه فى جيوب سترته ، وقال : «آخر التقارير ،
أريد أن أعرفها . .»

وعلم الرئيس أن الجنرال ذا الشهرة الواسعة، والذي لعب دوراً بطولياً في إفشال ثورة الحزب الأولى لم يقبض عليه حتى الآن، فصرخ وقد بدا جلياً غضبه الزائد:

- «كيف أفلت؟؟ كيف؟؟ افلتوه؟»

وسادت الغرفة موجة من الصمت الرهيب، أنهاها أحد القادة بقوله:

- «سيدى الرئيس . . لقد انتهى أمره وسيلقى القبض عليه لا محالة بعد حين، فالأمر لنا، والسلطة بأيدينا، وهو الآخر مجرد هارب مطارده . .» .

- «إن الضربة محكمة، ولا ينقصها إلا هذا الملعونان لا يصح أن يعيشا . .»، ومع ذلك فقد أخذ الرئيس يهنئ القادة والعسكريين بما حققوه من انتصارات رائعة فى خلال بضع ساعات، وخاصة بعد أن وردت تقارير من جميع أنحاء البلاد تفيد استيلاء رجال الحزب على جميع المرافق العامة والشرطة والإعلام ومحطات الماء والكهرباء . . إلخ .



عادت «جميلة» إلى بيتها لبضع دقائق، آملة أن تعود مسرعة مرة أخرى إلى القاعدة، فقد كانت حريصة على إطعام دواجن البيت وحيواناته والاطمئنان على المرأة العجوز أم زوجها، ولتطمئن على الوضع في جاكرتا بنفسها دون أن يكلفها أحد بذلك . .

وما أن وصلت البيت حتى قبلت العجوز في حرارة . .
وأخذت تتكلم في عجلة وانبهار، وتقول:

- «تصورى يا أمى . . إنه يوم العمر الذى لا ينسى . .
فى القاعدة الجوية وزعت علينا خناجر صغيرة وشفرات حلاقة، وقد حصلت على موسى حلاقة فقط . . كنا كثيرات . . وعلى البعد شاهدنا رجلاً بدينًا يرتدى ملابس النوم، ويدها مقيدتان، وعينه معصوبتان بعصابة . . وكان زعيم فصيلتنا ينهال عليه ضرباً، ثم بدأ فى تقطيع أجزاء خاصة منه، بعضها أخجل من ذكره، وكان الذى بدأ بضربه وتقطيع أوصاله هو أحد رفاقنا وكانت معه زوجته تساعده، وهما زعيما فرع المنظمة . . ثم تبعهما بعض الرفاق . .

وأخيراً أطلق النار على الضحية ثلاث مرات فسقط أرضاً ولم يمت . . فقام أحد الأشخاص ، وأصدر أمره للتحقق من موت الرجل ، وقال : قفوا فوق جثته كي تتحققوا من موته . . « .

قالت العجوز ، وقد اقشعر بدنهما :

- «أعوذ بالله . . ولماذا تكرهونه لهذا الحد؟؟ هل سرق أو قتل أو اعتدى على عفاف إحداكم؟؟» .

- «إنه مجرم فى حق الشعب . . « .

- «لا أفهم شيئاً مما تقولين؟؟ هل تعرفينه شخصياً؟؟» .

- «كانت العصابة على عينيه . . وأنا لا أعرف كل هؤلاء الكبار . . « .

- «تقتلين رجلاً لا تعرفينه» .

- «هو عدو . . « .

- «أنتم لا تعرفون شيئاً . . « .

ضحكت جميلة ، وأخذت تروى لها عشرات القصص

المشابهة، وأخيراً قالت العجوز عندما علمت أن جميلة مزمعة على الخروج:

- «حافظى على نفسك . . فالشارع كما سمعت تغرقه الدماء . .» .

أمسكت جميلة بشارة الحزب، وقربتها من عيني العجوز، وقالت:

- «أترين هذه؟؟» .

تحسستها العجوز، وقالت:

- «قطعة معدنية كالتي يلهو بها الأطفال . .» .

ضحكت جميلة، وقالت:

- «تلك شارة الحزب . . هذه تفتح لى الأبواب المغلقة . . وتجبر الجميع على احترامى، وتحقق لى كل ما أريد . .» .

- «لعلها خاتم سليمان» .

- «بل أعظم منه . .» .

وعادت جميلة إلى القاعدة الجوية . . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي أذاع الراديو أول بيان للحزب عن نجاح الثورة بعد أن تمت لهم السيطرة عليه، وذكر الراديو أنهم استولوا على المنشآت المهمة، وسيطروا على الأماكن والمراكز الإستراتيجية، واعتقلوا الخونة، وبعد ساعة أعاد الراديو بعد ذلك البلاغ رقم واحد بتوقيع الكولونيل قائد الحرس الجمهوري، ورددت محطات الإذاعة البيان نفسه، واستبشر رجال الحزب بهذا النصر العظيم، وخرجت المظاهرات منذ الصباح الباكر، حمل خلالها اللافتات والرايات، شارة الحزب، يغنون ويرقصون، ويهتفون ويصرخون في بعض شوارع المدينة المذهلة، وصدرت صحف الحزب في ذلك اليوم معلنة النصر الكبير، ونجاح الثوريين ضد الرجعية . . وكتبت صحفية تمجد الكولونيل كبطل ثار ضد مجلس الجنرالات، ووصفته الجريفة بأنه ولي الله على أعدائه . . . وذكرت إحدى الصحف الأخرى أنه من الضروري القضاء على جميع الخونة وإعدامهم . . كما أعادت صحيفة أخرى

فقرأت من خطاب الرئيس قبل الثورة بيوم واحد جاء فيه «أن الاستقرار لن يكون إلا بعد إراقة الكثير من الدماء، فالطريق نحو هذه الغاية صعب جداً، ولكننا يجب ألا تأخذنا الرحمة أو الشفقة . . لا بد أن نصفى هؤلاء الرجعيين حتى ولو أدى بنا الأمر إلى أن يقتل الأخ أخاه، أو الابن أباه، والقريب قريبه . . .» .

تغير وجه المدينة . . صبغ الشقاء وجه جاكرتا الحزينة . . دخان يعلو ويغطي جمال السماء . . وصراخ ينساب كالعويل اليائس . . وبعض الجثث ملقاة في الشوارع تنزف منها الدماء . . وكلاب تحوم حول الجثث . . الخوف جعل الناس يهرعون إلى بيوتهم وينظرون إلى الموتى محزونين دون أن يفكر متطوع في مواراتهم التراب . . مَنْ يدرى؟! إن من يدفن رجعيًا ربما تلتصق به تهمة الرجعية . .

ضحكت فاطمة في هستيرية، وقالت :

- «انتهينا . . .» .

وعادت تضحك والصمت مخيم على البيت، وأهلوها

يجلسون كأنهم فى مآتم ، وعيناها تبرقان فى جنون ،
وأخذت تدق الحائط وتقول :

- «إذن لن يعود أبى . . ولن يخرج أبو الحسن . .
وسيتحول رجال الإسلام خلف الأسوار إلى عظام نخرة . .
ستموت كل القيم الفاضلة فى بلادنا الحبيبة . . » .

وأخذت تصرخ وتبكى وتهتف بلا وعى :

- «تحيا الثورة . . تحيا الثورة . . »

ثم صممت فجأة ، وقالت :

- «دعونى أخرج . . . » .

تقدم أحد أقربائها الكبار ، وقال بجفاف :

- «لن يخرج أحد . . » .

وعادت إلى ضحكات الجنون ، وقالت :

- «أبشروا بالنصر إذن . . . » .

- «ستزول هذه الغمة . . . » .

قالت فاطمة فى اندهاش :

- «كيف؟؟ ببقاء كل فرد فى بيته؟ أليس هذا مضحكاً؟» .

- «البيانات الثورية التى تسمعيها فى الإذاعة ليست كل شىء» . .

- مدت فاطمة عنقها وعيناها مفتوحتان على آخرهما وقالت :

- «والجثث فى الشوارع؟؟» .

- «شهداء يرحمهم الله . .»

قهقهت فاطمة ، وقالت :

- «نحن نتفلسف . . والبلاد تهوى إلى حضيض ساحق . .»

والتفت فاطمة إلى أمها قائلة :

- «وماذا بعد أن نعيش مائة عام . .» .

- «الموت يا ابنتى . .» .

صفقت بيدها ، وقالت :

- «الموت . . ولا شىء غيره . . أهنالك فارق كبير بين أن يزيد العمر أو ينقص عشر سنوات؟؟ أريد أن أفهم . . أتدرون كيف يتتصر الرجال؟؟ أنت . . وأنت . . وأنت . . أجيبيوا . . سأجيب أنا . . نتتصر بالموت . . المنهزمون يموتون . . موتاً مادياً أو معنوياً . . فما قيمة الحياة بالنسبة للمنهزمين إننا إذ نموت ونحن نناضل من أجل الحق ففى ذلك حياة . . ونعيم . . .»

وجرت فاطمة حاسرة الرأس صوب الشارع، وحاول إخوتها اللحاق بها دون فائدة . . ووقفت أمها ترمق ابنتها وهى تتوارى بعيداً فى الشارع الضيق الطويل . . ودموعها على خديها، وغمغمت وقد خنقتها الدموع . .

- «فلتحرسها يارب . . .»



الفصل الثامن عشر

لم تكذ فاطمة تستقر على مكتبها فى دار الصحيفة حتى انفجرت باكية، تطلع إليها زملاء القلم دون أن يفعلوا شيئاً، وبعد أن انتهت من نوبة البكاء، وجففت دموعها، حمل إليها أحدهم كوباً من الشاي وأعطاهها قرصاً مهدئاً للأعصاب، نظرت إليه فى امتنان وابتلعت القرص . . وهمست فى انفعال:

- «آلاف الضحايا فى شتى الأنحاء . . .»

ولما لم يجب أحد استطردت:

- «إنها تصفية دموية رهيبة . . .»

وأخيراً تكلم أحد المحررين السياسيين:

- «سوف تعترف بعض الدول بالوضع الجديد، هذا ما فهمته وأنا أستمع لتعليق الإذاعات . . .» .

وعلق زميل له فى القسم السياسى نفسها :

- «أعتقدون أن الأمور ستمر هكذا ببساطة دون مقاومة من جانب الشعب الذى يذبح علناً دون إدانة؟؟» .

قالت فاطمة :

- «اسمعوا . . .» .

وأنصت الجميع كان هناك ضجة عالية، وهتافات راعدة، وطلقات رصاص، ورائحة بارود، وتجمهر المحررون لدى أحد النوافذ المطلة على الشارع العمومى، فرأوا حشداً ضخماً من المتظاهرين رافعين الأعلام المرسومة بشعار الحزب، وهناك لافتات كثيرة كتبت بلون أحمر كالدم، استطاع أحد المحررين أن يقرأها بوضوح، مكتوب عليها «اقتل . . . اقتل» - الموت للخونة- لا حرية لأعداء الشعب- لا محاكمات ولا اعتقالات، بل قطع الرقاب فى الطرقات عاش الزعيم بطل التصفية الدموية . . بالحديد والنار تنتصر الثورة . . المشانق للخونة . . الرحمة انهيار .

ودخل رئيس التحرير فجأة وهتف بالجميع ، فعادوا إلى أماكنهم ، ثم قال انصتوا إليّ :

- «لن نعتدى على أحد . . ولكن هل هناك ما يمنع من أن يعتدى علينا بعض المتوحشين؟؟ لا توجد أية ضمانات بالنسبة لنا ، فنحن مضطرون إذن للدفاع عن أنفسنا . .» .

قالت فاطمة :

- «ما معنى ذلك؟؟» .

التفت رئيس التحرير إلى أحد الرجال الذين معه ، وقال :
- «أين الحقيبة؟؟» .

فسلمه الرجل حقيبة سوداء ففتحها ، وأخرج منها بعض المسدسات وكمية من الذخيرة ، وزجاجات مولوتوف ، وقنابل مسيلة للدموع ، وقال رئيس التحرير :

- «ليأخذ كل واحد منكم مسدساً . . ولا يستعمل إلا للدفاع عن النفس . . لقد فكرت ، ورأيت أنه لا يصح أن نموت كما تموت الكلاب . . إننا مضطرون لذلك . .» .

قال المحرر الفنى ، ورفيقه المحرر الرياضى :

- «نحن لا نعرف كيف نستعمل هذه الأشياء . . .» .
- «هنا من يعرفون ، تستطيعون أن تتعلموا منهم . . .» .
ودخل فى ذلك الوقت أحد البوابين والرعب يكاد يقتله
يقول :

- «سيدى المتظاهرون أمام باب المبنى ، وقد بدأوا فى
قذفه بالأحجار . . سيقضون علينا لا محالة . . .» .
- «هذا ما توقعته . . .» .

انهالت الأحجار ، فتحطم زجاج النوافذ ، وتطايرت
شظاياها فى كل الأنحاء ، وانطلق الرصاص عشوائياً ، وتقدم
ثلاثة من رفقاء الحزب لاقتحام باب السور ، ولما اعتراضهم
الحارس العجوز أردوه قتيلاً بعدد كبير من الرصاصات ، كانت
فاطمة عند ذلك واقفة بأعلى السلم ، وشهدت المنظر الدامى
فأطلقت عيارات نارية من مسدسها ، فارتمى أحد الرفاق الثلاثة
على الأرض مضرجاً بدمائه ، وكانت فاطمة تهتف :

- «العين بالعين . . .» ، فجرها أحد المحررين إلى أعلى
وهو يقول :

«إن وقوفك هكذا يعرضك لموت محقق . . لم تكن في وعيها، كانت تحاول أن تنتزع نفسها منه لتواجه الموجة العدوانية التي تدهمهم في عقر دارهم دون سبب معقول، ولكن عندما سقط الرفيق هاجت جموع المتظاهرين واندفعوا كالمجانين صوب الباب الحديدي المغلق يهزونه في عنف، واستمر تبادل إطلاق الرصاص، وصاح أحد المتظاهرين: - «أحرقوا الدار على من فيها . .» .

وسرعان ما قذفوا قطع القماش المبللة بالبنزين والبتترول في أنحاء شتى من المبنى، فاندلع اللهب في أماكن متفرقة . وسمعت فاطمة عويلاً خلفها، فنظرت فإذا محرر الصفحة الفنية ذى السوالف الطويلة يرتدى على المنضدة، ودموعه تغرق الأوراق، والمسدس ملقى في إهمال أمامه دون أن يمس . . نظرت إليه في احتقار ثم اقتربت منه قائلة: - «ألا تخجل؟؟» .

دق المنضدة في ذعر، قال:

- «لا أريد أن أموت . .» .

- «حسناً . اخرج وقل لهم ذلك . .» .
- «عشت أمقت السياسة طول حياتي . .» .
- «لا قيمة لما تقول . .» .
- «وهبت نفسى للفن . .» .
- «فك تافه لا معنى له» .
- «القتال للحيوانات . . لم أخلق لذلك» .
- جذبتة من شعره فى عنف فوقف ونظر إليها فى ذهول،
فعاجلته قائلة :
- «خذ مسدسك . . التتار الذين بالخارج لا يفرقون بين
فنان وسياسى، ولا يعرفون البرىء من المسىء، ليس هناك
سوى شىء واحد تفعله . . أن تدافع عن نفسك . . أى
إنسان يفعل ذلك . . وكذلك الحيوان . . أتفهم؟؟» .
- أمسك المسدس بيد مرتجفة، لكنه سرعان ما رماه وهو
يصرخ :
- «الحريق . . الحريق . .» .
-

امتلاً أجواء المبنى بالدخان ورائحة البترول المحترق، واشتد تبادل الرصاص ورمى زجاجات «مولوتوف» بين المحاصرين والمهاجمين، وقدم رئيس التحرير، وقال:

- «اقذفوا بالقنابل المسيلة للدموع.. ثم اهربوا من النوافذ والشغرات.. أو انزلقوا على أنابيب المياه.. افعلوا أى شيء كى تخرجوا من هنا وإلا احترقنا..».

وتواثب المحررون فى كل ناحية، وبقي المحرر الفنى يتلفت يمنة ويسرة فى بلاهة لا يدرى أين يذهب، وبعد دقائق نظر حواليه فلم يجد أحداً.. فارتمى بيكى.. كانت صور الممثلين والممثلات الجميلات، وفتيان الشاشة ملقاة على مكتبه، الصور تبسم له، وكأنها من عالم آخر لا تحس بالآلامه وأحزانه وضياعه، فانقض عليها يمزقها فى هوس، اللعنة على كل شيء.. على الفن.. والسياسة.. على الحياة كلها.. ما سر هذا الشقاء كله، ألا يمكن لأى إنسان مهما التزم الحياد والبعد عن المشاكل، ألا يمكن أن يعيش فى سلام؟؟ امتلأت الغرفة بالدخان.. شعر بما يشبه الاختناق، أخذ يسعل ويسعل، ويجرى داخل الغرفة كفأر حبيس فى

مصيدة . . . وظل يجرى ويلف ويدور حتى وهنت قواه،
إن بقى هنا مات محترقاً أو مختنقاً، وإذا وثب من النافذة
فقد تتأقفه رصاصة، أو يمسك به الوحوش فى الخارج،
وظل يفكر حتى شعر بدوار . . . حاول أن ينهض فلم
يستطع، لم يعد قادراً على رؤية شىء . . . الدخان صبغ
الغرفة بلون ضبابى بدأ أمامه كمحيط كبير من الأوهام
والرؤى المزعجة والأشباح المخيفة . . . ورويداً رويداً فقد
الوعى . . . كان الوحيد الذي مات هو المحرر الفنى . . . ولم
تستخرج جثته إلا بعد ثلاثة أيام . . .

وعادت فاطمة إلى بيتها . . . كانت مغبرة . . . والأحوال
والهباب تلوث ثيابها البيضاء . . . ودلفت إلى البيت
صامتة . . . وما أن ارتمت على السجادة المهترئة فى وسط
الصالة حتى همست :

- «أريد أن أشرب . . .» .

ناولتها أمها كوباً من الماء وعادت فاطمة تقول :

- «لأول مرة فى حياتى أشعر بروعة القصاص . . . وأتلذذ

بمذاق النصر . . شعرت وأنا أطلق عليهم الرصاص أننى آخذ
بثأر البواب العجوز . . وبثأر المسكين . . وأنتقم للرجل الذى
يعيش خلف الأسوار رهن المحاكمة . . ولأبيه المشلول . . « .

دقت أمها على صدرها فى استغراب :

- «تقولين أنك قتلت أحداً؟؟» .

هزت رأسها فى تأكيد :

- «نعم رأيته يتدحرج كالخنزير . . والرعب يطل من
عينيه كان أتفه وأجبن مما تتصورين . . لعله كان يظن أنه لا بد
سيقتل الآخرين دون أن يجرؤ أحد على قتله . .

تراجع الكثيرون ممن حوله حينما سقط . . لكنهم عادوا
واندفعوا معتمدين على كثرتهم . . وعلى البيانات التى
يصرخ بها الراديو . . لقد تبين لى أن قوة رجال الحزب فى
هذا البلد أسطورة تافهة . . « .

طأطأت الأم رأسها فى أسف ، وقالت :

- «حتى الذين عرفوا بعدائهم لم يتسابقوا الآن فى
إصدار بيانات التأييد عبر الأثير ، ويشتركون فى المظاهرات

الصاخبة . . الناس يا ابتى مع المتصر . . لا قيمة الآن لأية
مقاومة . . .»

- «أعرف أن الموقف يدعو لليأس . . .»

- «فلنصمت إذن . . .»

-«لا . . فلنمت إذن . . كيف تكون الحياة بدون الحرية
والأب والخطيب . . .»

وكيف نحيا فى ظل الوحوش . . الذين جعلوا من الجوع
والعدالة أغنية يترنمون بها، وهم متخمون، ولا يعرفون
للعدالة معنى . . . إنهم مجموعة من مترفى الثقافة،
وأنصاف المتعلمين، يتعلقون بالبدع، ويبغون الكسب
لأنفسهم لا لشعوبهم . . لم أشهد فى مظاهراتهم حافياً أو
عارياً . . إنهم يتكسون باسم الثورة ويعبرون عن حقدهم
وفشلهم وانحرافهم بالتحلى بالشعارات الثورية . . لا حل
سوى أن يعود الجميع إخوة إلى راية الله . . .»

والتفت فاطمة يمنا ويسرة، وقالت:

- «أين إخوتى؟؟»

- «ذهبوا . . .»
- «إلى أين؟؟»
- «قيل إن الجنرال الأكبر أفلت من الموت وأنه يجمع
الجموع لخوض معركة ضد الثائرين . . .»
- «أين الجنرال؟؟»
- «فى جاكرتا . . . أو باندونج . . .»
- «لكن جاكرتا سقطت كلها فى أيديهم . . .»
- «لقد اتخذ من إذاعة باندونج مقراً لدوعوته
الإعلامية . . .»
- صاحت فاطمة فى فرح . . .
- «الله أكبر . . . سألحق بهم . . .»

كان لانتصارات رجال الحزب خلال الأربع والعشرين
ساعة الماضية ضجة كبرى فى جميع أنحاء البلاد خاصة
والعالم عامة، كما أن العنف البالغ الذى صاحب
انتصارهم له رنة أسى فى نفوس الملايين، وانقسم أهل

البلاد غير رجال الحزب إلى فريقين ، فريق رأى أن يهجر البلاد وينطلق إلى آفاق الله الواسعة ، وفريق آخر رأى أن يبقى ويسلم أمره لله ، فإذا تركوه وشأنه بقى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإن قصدوا له ناضل حتى الموت ، ساد هرج ومرج فى شتى الأنحاء ، وسمع المعتقلون والمسجونون بالأخبار الأولى للثورة ، فانكمشوا فى زناناتهم ينتظرون مصيرهم الغامض ، فهم يؤمنون بأن ذلك يوم انتقام أكثر منه يوم تحرر ، وأن حياتهم أصبحت عرضة للقضاء عليها فى أية لحظة ، وكان بعض القادة المسئولين عن السياسيين المحجوزين أبعد نظراً ، فاعتصموا بالتريث حتى ينجلي الموقف ، أما فى السجون الأخرى التى يشرف عليها عاملون فى الحزب فقد بادروا بتوجيه الضربة للسجناء المساكين ، مثال ذلك ما حدث فى المعتقل الذى كان «حاجى محمد إدريس» نزيلاً به . . فقد استمع المعتقل لأنباء الانتصارات كما وصلت إليه رسائل رسمية من مندوبى الحزب بأن الأمر قد استقر نهائياً للثورة فوقف فى المساء وأخذ يغمغم :

- «كان هذا يومك يا «أنانج» . . لكن ما الحيلة قد
اختطفك الموت سريعاً . .» .

وابتسم الرفاق في سخرية، فقد كانوا يعرفون أن القائد
هو الذى دبر قتله . . وبعد ساعة دعا القائد المخلصين
السجانة والضباط وأخبرهم بأن الأوامر صريحة بالقضاء
على رجال ماشومى المحتجزين فى المعتقل غير أن أحد
الضباط قال :

- «سيدى القائد . . أريد أمراً كتابياً موقعاً عليه
منك . .» .

نظر إليه القائد فى اشمئزاز، وقال :

- «المعركة ضارية، ولا مجال للتردد والخوف . .» .

- «أنت قائدنا، ونحن طوع أمرك . . لكن أمراً كهذا
يجب أن يكون كتابة . .» .

صاح القائد فى غضب :

- «إن من يمتنع عن تنفيذ أوامرى سوف أطلق عليه
الرصاص . .» .

- «أنا لم أمتنع ، ولكن أريد أمراً مكتوباً . . .» .

- «حسناً . . . إليك الأمر . . .» .

وكتب بضع كلمات وقعها بيد مرتجفة ، ثم قذف بالورقة
فى وجه الضابط ، وهو يغتمغم :

- «ساعة الصفر فى العاشرة مساء . . .» .

وفى الساعة المحددة حشد القائد عددًا من الجنود المسلحين
بالمدافع الرشاشة ، وأمرهم بأن يقضوا على النزلاء حجرة
حجرة ، ولا يصح أن يفتحوا أكثر من حجرة للنزلاء فى وقت
واحد ، غير أن الذى أدهش القائد هو أن الضابط الذى تسلم
الأمر الكتابى كان قد اختفى ولم يعثر له على أثر ، ومع ذلك
فقد اتجه القائد بنفسه ووراءه الجنود المسلحون ، ثم فتحوا أول
حجرة . . . كان بعض المسجونين نائمين ، والبعض الآخر
جالسًا يترقب ، ولم تطل دهشة المسجونين أو تساؤلهم فقد
انهمر الرصاص فى جنون ، وانداحت بضع صرخات واهنة
فى جوف الصمت والظلام . . . ثم ساد السكون ، وفى
الزرنانات الأخرى أفاق النائمون مذعورين .

طارت الأحلام واصطبغت الآمال بالسواد، فلم يغب عن أذهانهم معنى الصراخ ودمدمات الرصاص، وخاصة أنهم قد علموا منذ الصباح أن رجال الحزب قد سيطروا نهائياً على مقاليد الحكم فى حماية الرئيس وتأييده، وأخذت فرقة الموت تنتقل من زنزانة إلى أخرى عبر جو من الرعب القاتل الذى لا يرحم . . كان «حاجى محمد إدريس» راقداً فى غرفة الضماد التى تقع فى طرف من أطراف السجن بعيداً عن الزنانات . . وسأل حاجى محمد المضمدا ذا السترة العسكرية الواقف إلى جواره قائلاً:

- «ماذا يجرى هناك؟؟ قلبى يحدثنى أن جريمة كبرى ترتكب . .» .

- «لا أعرف . .» .

تبلمت عينا حاجى محمد بالدموع، وقال:

- «لقد حانت لحظة الوداع . . الإخوة يموتون ظلماً . .
يخيل إلى أن الملائكة تشهد المجزرة الحزينة . .» .

هز المضمدا رأسه قائلاً:

- «لقد انتصروا . . .» .

- «بل النصر لهؤلاء الشهداء الأبرار . . .» .

- «لكن الملائكة الذين تتحدث عنهم لم يتدخلوا لإنقاذ أخواك . . .» .

- «لست أدري كيف أشرح لك الأمر . . . كان حمزة بن عبد المطلب هو عم الرسول . . . لكنه مات أبشع ميتة . . . غير أن طبول النصر ظلت تدق حتى انتشرت دعوة الله فى أنحاء الدنيا . . .» .

التفت إليه المضمدة قائلاً:

- «وأنت . . . لا تخاف الموت؟؟» .

- «آه . . . ومن قال ذلك؟؟ أنا بشر . . . قلبى يغص بأحزان كثيرة . . . ولا مفر من الموت . . .» .

وخطا المضمد إلى الخارج بضع خطوات ونظر يميناً وشمالاً، ثم عاد مسرعاً، وقال:

- «حاجى محمد . . .» .

- «نعم . . .» .

- «لا أريدك أن تموت . . .» .

- «إنها مشيئة الله . . .» .

- «تعال . . . تعال . . .» .

ثم جذبته المضمّد، وأنزله من فوق فراش المرض،
وأدخله تحت السرير الواطئ، وهو يقول:

- «فلتختف هنا حتى الصباح . . . لا تخف . . . لقد رأيتهم
ينصرفون خارج السجن بعد أن قضوا على كل من فيه . . .
ربما نسوك في عجلتهم . . .» .

انتهت المجزرة . . . وجلس القائد وحوله الرفاق، وأخذوا
يعبون من الكؤوس، القائد يحلم بالمجد والنياشين
وymiصب كبير في العاصمة، وبسجل حافل من البطولات
ضد أعداء الثورة . . . أخذ القائد يقهقه، فقال أحد الضباط:
- «ما الذي يضحكك؟؟» .

- «تصور الصحف الأجنبية العميلة وهي تكتب عنى

وتنعتنى بالجلاد . . وأتصور قصائد الشعر والقصص التي يكتبها الفنانون عن المجزرة التي صنعتها فأضحك . . ها . . ها . .

لكنى سأدخل العاصمة مرفوع الرأس . . وسينهض الزعيم والرفاق لاستقبالى كما يستقبل الرجال العظام . . الآن بدأت أفهم الحقيقة . . صبوا مزيداً من الخمر . . الجثث إلى المقبرة الجماعية . . انتظر . . إذا وجدت أحداً جريحاً لم يمت بعد فليدفن مع الموتى . . انتظر . . ولتبحث عن بعض مقرئى القرآن ليرتلوا على المقبرة بضع آيات من كتاب الله . . انتظر وإذا كان هناك رجل صالح من الضحايا فلتقيموا له وحده قبة وضريحاً ليكون مصيدة للحمقى من المتصوفة . . املاً الكأس يا رفيق . . أن تقتل إنساناً فهذا أمر بسيط . . مات أبى وأنا صغير السن . . ذبحه قطاع الطرق . . هكذا سمعت . . يومها أقسمت أن أنتقم من القتلة . . بل صممت على أن أنتقم من الذين تسببوا فى فرض الجوع على الجموع . . اشربوا وامرحوا . . وارقصوا، ففي هذا اليوم بدأ تاريخنا المجيد . . « .

كان يتكلم وحده . . وفجأة جاء أحد الضباط ، وقال :

- «سيدى القائد . . هل سمعت إذاعة باندونج؟» .

وقال القائد وهو يترنج :

- «لم أسمعها . . ولكنى على يقين من أنها تردد بيانات

الثوار التى تصدر عن العاصمة . .» .

قال الضابط ممتقع الوجه :

- «أفق يا سيدى القائد . . فقد حدثت كارثة كبرى . .» .

وقف القائد مبهورًا ، وقال :

- «ماذا جرى؟؟» .

- «تولى الجنرال الأكبر القيادة ، وحاصر العاصمة ،

وكاد يقضى على الثورة . . والقوات المسلحة تمشط

المدينة . . نحن نتراجع . .» .

هب القائد ، وصرخ :

- «مستحيل . .» .

- «ولماذا أكذب عليك . . هذا هو الراديو . .» .

أمسك القائد بالراديو ورماه على الأرض وأخذ يده
بحذائه الغليظ ، ويقول :

- «إنها أكذوبة . . القصد منها توهين قوى الثوار . .» .

- «سيدى القائد يجب أن تتصرف بعقل وإلا تعرضنا
لعقاب مدمر . .» .

اقترب منه القائد ونظرات الجنون تطل من عينيه :

- «ماذا تعنى؟» .

- «الناس هنا يعرفون من نحن ، فقد يهاجمونا . .» .

- «الناس هنا معنا . .» .

- «لا أصدق . . إنهم ينافقوننا . . كانوا خائفين فأظهروا
الولاء لنا . . لا تنس أننا قمنا بعمل فظيع . .» .

تلاحقت أنفاس القائد ، وطلب راديو آخر ، وأخذ
يستمع إلى إذاعة باندونج ، ثم أدار المؤشر صوب العاصمة ،
وكم كانت دهشة الجميع عندما سمعوا أن إذاعة العاصمة
هى الأخرى قد احتلتها قوات الجنرال .

انهار الرجال، ولم يستطيعوا أن ينطلقوا . . . وتساءلت
أعينهم الحيرى فى رعب مهول، وأخذ القائد يدق رأسه
ويصرخ:

- «لا أصدق . . لا أصدق . .» .

وهدر صوت قوى يعرفه الجميع قائلاً:

- «تلك هى الحقيقة أيها الأحمق . .» .

ونظر القائد عبر الظلام، وقال:

- «مَنْ هذا المجنون؟؟» .

- «الضابط الملازم . .» .

- «هل جننت؟؟» .

- «قف مكانك لا تتحرك أيها السفاح . .» .

ونظر القائد المشدوه، فإذا بالملازم مصوباً نحوه مدفعه
الرشاش ومن خلفه نخبة من الضباط والجنود الشرفاء . .
تطلع إليهم القائد فى دهشة، وقال:

- «أنتم؟؟» .

رد الملازم:

- «نعم . . .» .

- «لكنكم كنتم تحضرون معنا اجتماعات الخلايا الخاصة

للحزب . . .» .

قال الملازم:

- «إن تحركت أردتك قتيلاً أنت ومن معك . . ألقوا

السلاح . . .» .

وساق الملازم الجميع إلى زنانات خالية في السجن، ثم

أغلق عليهم الأبواب، وهو يقول:

- «ذوقوا أياماً قليلة حتى يأتي يوم المحاكمة العادلة . . .» .

وخرج حاجي محمد من تحت السرير بأمر من المضمّد الذي

أخذه إلى الملازم، وبعد أن علم كل شيء قال حاجي محمد:

- «أنا أبكى الشهداء . . لكنى أقول إنك عناية الله

مجسمة في رجل شريف . . .» .

انحنى الملازم في احترام، وقال:

- «أعطني يدك أقبلها . . فقد كنت مثلاً لإيمان الآباء العظام . .» .

وفى اليوم التالى دبر الملازم وسيلة لنقل حاجى محمد إلى العاصمة، وأوصاه بالمحافظة على نفسه، والاستعداد ليوم قريب يدلى فيه بالحقيقة الخالصة ليعلم الناس ما كان يجرى فى الظلام . . وطوال الطريق كان حاجى محمد يرى البشاعة التى تعافها النفس . . القبور الجماعية . . أماكن العزل الذين قتلهم رجال الحزب وعلقوهم على نواصى الشوارع . . التلاميذ الصغار وقد هدمت على رؤوسهم دور العلم . . عشرات الألوف من القصص والحكايات التى تبدوا لأول وهلة أنها خرافية . . ورأى شيئاً آخر . . رأى فلول المنهزمين يولون الأدبار فى كل اتجاه . . وغمغم:

- «يا له من عذاب!! لكنها حكمة الله . .» .

العاصمة تبدو خاوية مهجورة بسبب منع التجوال، وحاجى محمد داخل سيارة إسعاف يحمل سائقها تصريح مرور . .

وجه المدينة تغير تماماً، إنها تبدو كمريض يمر بطور
النقاها ليستأنف حياة الصحة والعافية بعد جرحه الخطير . .

قالت زوجته وقد اتسعت عيناها دهشة حين رأته :

- «هل عدت يا حبيبي؟؟» .

غمغم وهو يقبل رأسها ويربت على ظهرها فى ود:

- «يقول شاعر عربى قديم»:

وَكُلُّ مُسَافِرٍ سَيَأُوبُ يَوْمًا

إِذَا رَزِقَ السَّلَامَةَ وَالْإِيَابَا

همست وهى تساعده على الجلوس :

- «هل أصابك مكروه؟؟» .

- «كان حلمًا رهيبًا . . آه . . حذار أن تلمسى

ظهري . .» .

- «ألا تستطيع المشى؟؟» .

- «لا أظن أننى أستطيع أن أمشى بعد الآن . .» .

ثم تلفت حواليه :

- «أين البنات والأبناء . . .» .

- «يخوضون أشرف معركة ضد الشر تحت لواء الجنرال . . .» .

- «ما أسعدنى أنه رفيق الكفاح فى السنين الخالية . . .» .

ثم أخذ يترنم بصوت باكٍ حزين بكلمات من القرآن الكريم:

﴿ وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا
(١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا
هَضْمًا ﴾ [طه: ١١١، ١١٢].

كان أبو الحسن منكمشاً فى سجنه مهموماً حزينا تترأى له صورة العنف الثورى فى الخارج فيبتهل إلى الله بالدعوات، وتحوم فى خياله صورة الأب المشلول، والأم المسكينة، والخطيبة المعذبة، والصهر المفقود، تلك هى الجزر الخضراء التى يمتلكها الآن التتار ويثون فى جنباتها الرعب، أيمن أن يكون ما يفعلونه هو الحل الأمثل؟؟ وكيف تقيم

الدماء والمظالم والسجون دعائم المجتمع الفاضل؟؟ لا قيمة
للنظرية الاقتصادية أو الفلسفة الاجتماعية ما لم ترع حرمة
الإنسان، وتحترم أديمته، فالنفوس الحاقدة الدنيئة من العسير
أن تخلق مجتمع السعادة والرخاء، والفقر ليس كائناً شريراً
يستأصل بالسيوف، ولكنه مرض يحتاج إلى معالجة
حكيمة، ولمسة حنان للجسم الذى يعيش فيه، وإلا قضى
على المرض فى الوقت نفسه، أشياء كثيرة، وأفكار مختلفة
كانت تتزاحم فى رأس أبى الحسن، وهو يستمع إلى الأنباء
المثيرة من مكبر للصوت معلق فى أعلى مكان بالسجن، وما
أن تغيرت الصورة عندما انطلق صوت الشعب الحقيقى يعبر
عن المأساة حتى وقف «أبو الحسن» وصاح على صوته:

- «الله أكبر ولا عزة إلا بالإسلام.. الله أكبر والعزة

الله».

وأتى إليه أحد الحراس، واقترب من باب الزنانه، وقال:

- «خير لك أن تصمت..».

- «أننى أعبر عن حقيقة شعورى..».

- «لا تتعجل . . وانتظر حتى تنجلي الأمور» .

- «ليكن ما يكون . . .» .

- «مادمت غير مقتنع بكلامى فلتلتزم بلائحة

السجن . . .» .

وصمت أبو الحسن مرغماً، وعاد الحارس يقول :

- «هذا المكان غريب . . الكثيرون أتوا إليه سجناء ثم

خرجوا منه وزراء . . كثير من الزعماء عادوا إليه تثقلهم

القيود . . هكذا الدنيا . . ولذا ترانى لا أكثرث كثيراً لما

يحدث . . أننى أودى عملى هنا بأمانة دون النظر لأى ماض

أو مستقبل . . المعارض والمؤيد عندى سواء . . والإنسان

سواء أكان وزيراً ذا سلطة، أو سجيناً مسلوب الإرادة . . .

أنا هنا أرى الإنسان عارياً من أى زيف . . .» .

وقهقه الحارس، وقال :

- «هناك أحد الخطباء المشاهير، كان يهز المشاعر عندما

يخطب، ويلهب حماس الجماهير ويشعل الثورة فى

نفوسهم . . كان شجاعاً من الطراز الأول . . العجيب أننى رأيتُه هنا ذات مرة، وبعد أن صفعه ضابط المخابرات صفعَةً واحدة انهار باكياً كامرأة . . دنيا» .

وأفرج بعد يومين عن «أبى الحسن» يا لها من لحظات . . كان بالأمس يشعر لبأسه - إنه لن يخرج من السجن مطلقاً، وها هو الآن يعود إلى الدنيا بكل ما فيها من جمال وزهور وحياة . . آه . . أنه يرى مقر الحزب فى العاصمة محترقاً كالخرائب الأثرية بعد أن عصفت به نعمة الجماهير التى طال صبرها . . لكن رائحة الدم والبارود والاحتراق ما زالت تزكم الأنوف . . دخل البيت . . هبت أمه من مكانها وهى لا تكاد تصدق . . لم تطلق زغرودة . . بل ضمته إلى صدرها الواهن ضمة قوية أودعتها كل عواطفها . . وأسرع إلى أبيه . .

كان الرجل بين اليقظة والنام . . التجاعيد . . الشحوب والفم المنحرف من أثر الشلل، وظلال السنين الطويلة من العرق والكفاح والشقاء:

- «أبى أبى . . ها قد أتيت إليك . .» .

فرك الرجل عينيه، ونظر بإمعان:

- «هل أنا فى حلم؟؟؟» .

واحتضن «أبو الحسن» أباه . . والعجوز يغمغم:

كلمات كثيرة قيلت، ونظرات تفيض بالشوق والحنان،
وقال العجوز بلهجة متعثرة بطيئة:

- «ماذا يدور فى الخارج؟؟» .

- «رجال الحزب أرادوا قلب النظام . .» .

- «ودارت المعارك؟؟» .

- «نعم . . وقتلَ خلق كثير . .» .

وأخذ العجوز يهتز من نوبة ضحك مفاجئة والدموع فى
عينيه، ويقول:

- «لست أدرى لماذا يقتل الناس بعضهم بعضاً . . القتال
لا يجلب غير الحزن والدمار . . هذه الفتن لا يصنعها إلا
مفتونون أو قطاع طرق . . أو قوم نزعوا خشية الله من
قلوبهم . .» .

- «لقد انتهت الأزمة، وستعود الحياة إلى مجراها الطبيعي...».

قال العجوز وهو يسعل:

- «لقد ظننت بادئ ذي بدء أن الهولنديين قد عادوا ثانية...».

وذهب أبو الحسن بعد ساعة إلى بيت «فاطمة» وكم كان سروره عندما رأى حاجي محمد مضجعاً في سريرته يرشف كوباً من الشاي... وغمغم حاجي محمد:

- «العالم المتقدم الآمن ينمو ويتزعرع بهدوء، وهنا يأكل الناس بعضهم بعضاً... لو فكر الناس لخرجوا من هذه الحمامات...»

ورد أبو الحسن:

- «يالها من أيام!!».

- «في أيام السجن السوداء خيل لي أنني رهن عذاب القبر... لم أكن أصدق ما تشهده عيناى...».

- «الحمقى الآن يجنون ثمرة الانحراف . . .» .

وأخذ الاثنان يتحاذبان أطراف الحديث عما جرى لهما،
ودمعت عينا حاجي محمد إدريس وهو يروى مذبحة
السجن التي راح ضحيتها عدد من ماشومي الأبرياء . .

حين انتحر رجال الحزب، وولت جموعهم الأدبار
أمرت القيادة العام بتجنيد مجموعة خاصة للبحث عن
«الزعيم» وغيره من الهاربين، وأصرت «فاطمة» أن ترافق
المجموعة الذاهبة للبحث عن الزعيم . . وكانت التحريات
تأتى عنه من آن لآخر، ولعبت فاطمة دوراً بارزاً فى هذا
المجال، إذ كانت تقصد بعض التجمعات متخفية، وتزعم
أنها تحمل بعض الأنباء المهمة وتريد إبلاغها للزعيم نفسه،
وكان قد أشيع أن «الزعيم» قد هرب إلى خارج البلاد، غير
أنها استطاعت أن تكشف هذه الخدعة، فقد علمت من
إحدى فتيات المنظمة أن الزعيم لم يهرب خارج البلاد، وإنما
هو قد عمد إلى التخفى كى يجمع أعضاء الحزب،
ويخوض حرباً شعبية ضد الجيش وسرعان ما أبلغت هذه

المعلومات للقيادة المسئولة، بل واستطاعت أن تحدد الجهة التي ذهب إليها . .

كان «الزعيم» يرغب في الاختفاء في الأدغال، وإعلان حرب العصابات، ودخل القرية في طريقه إلى هدفه، على أن يستريح بعض الوقت، ووجد أحد معارفه هناك فذهب إليه على التو وكان الزعيم متخفياً في زى حمّال .

الليل ساكن . . ووجد نفسه قد أغلق باب بيته . . ونظر إلى الزعيم الكبير، وقال في أسى :

- «لكم يحزننى أن تبدو فى زى حمّال وأنت الزعيم الكبير، والوزير المبجل . .» .

ابتسم فى شحوب، وقال :

- «لا يهم المظهر . .» .

- «ألم تعد لنياشين الرئيس قيمة . .» .

- «أنا لا أفكر فى غير النجاة من مخالبا الجيش . .» .

- «يخيل إلى أنّكم لا تتقنوا رسم التحركات عند الثورة . .» .

تنهد وقال فى حزن :

- «كل شىء كان بمنتهى الدقة . . .» .

- «ماذا جرى إذن؟؟؟» .

- «هناك أيد خفية تلعب فى الخفاء . . .» .

نظر إليه الصديق فى شك ، وقال :

- «اسمح لى أيها الزعيم . . أن لا أصدق ذلك . . كانت

العاصمة محاصرة . . وكان كل شىء فى أيديكم . .

الجنرالات قتلوا . . والزعماء فى السجون . . والرصاص

أودى بحياة الكثيرين من المعارضين . . الذين قاموا ضدكم

تلقائياً . .» .

وابتلع الصديق ريقه ، وقال فى حرج :

- «كان الشعب معهم . . .» .

وضحك الزعيم ، وقال ساخراً :

- «لقد ساعدهم الله . . .» .

- «ولمَ لا؟؟؟» .

نظر فى ضيق وغيظ، وقال: .

- «الله لا شأن له الثورات، ولا يتدخل فى الهزيمة أو النصر...» .

أخفى الصديق امتعاضه، ثم خرج، وبعد ساعة عاد والاضطراب باد عليه وصرخ:

- أيها الزعيم... .

- «ماذا جرى...» .

وأفاق الزعيم من نومه مندهشاً، بينما قال الصديق:

- «القرية محاصرة تماماً، ويملؤها جنود الجيش وهم يفتشونها بيتاً بيتاً...» .

صرخ فى جنون:

- «مستحيل أن يمسكوا بى...» .

وتدراسا الأمر بسرعة، وأخيراً وجد مكاناً آمناً خلف خزانة الدار، اختبأ فيه الزعيم، كان المكان كالكهف الصغير المظلم، وكان الزعيم يشعر برعب قاتل، ويكاد يختنق فى

المكان الضيق، وذكر الماضي . . ذكر الآلاف المؤلفة وهم يستمعون إلى خطبه النارية، والأكف تلتهب بالتصفيق، والحناجر تعلقو بالهتاف، وذكر الصحف وهي تبرز مقالاته، تتصدرها صورته، وذكر زيارته في الخارج والاستقبالات الحارة له، وذكر الآمال العريضة التي ينعم في أحلامها . . كل شيء ذهب . . حتى زوجته لم تعد إلى جواره . . ها هو وحده . . مخبأ كالقبر . . وظلام . . ورعب ومطاردة أكان جميع الذين قتلهم أو اعتقلهم رجال الحزب يشعرون بهذه الآلام النفسية البشعة؟؟

وساوره ندم قاتل وسمع ضجة قريبة .

- «لقد أتوا . .» .

همس بها وهو في شبهه غيبوبة من الخوف الشديد، صديقه يؤكد للجنود أنه فعلاً كان هنا، ولكنه رحل وهو لا يدرى أين ذهب، ويأخذ بعضهم الصديق ويمضون، والبعض الآخر يبقى بالدار . . ويذهب جندي صغير يبحث هنا وهناك . . شيء ما يجذبه صوب هذه الخزانة العتيقة . .

وينظر إلى الخزانة، ويتطلع تحتها وفوقها، ويحاول جاهداً أن ينظر وراءها في حيز ضيق صغير . . وغمغم الجندي البسيط قائلاً:

- «إننى أشم هنا رائحة الجريمة . . زحزحوا هذه الخزانة . .» .

كانت مفاجأة مذهلة حين وجدوا شخصاً مختبئاً في مكان ضيق خلف الخزانة، وسرى النبأ في كل مكان . . سقط الزعيم كان يمضى بين كوكبة من الجنود كسير النظرات، شاحب الوجه، يحاول أن يتماسك، وازدحم الناس واختلط الحابل بالمنابل . . المشهد مثير . . والزعيم الكبير يمضى تائهاً غائم النظرات والضجيج يملأ أذنيه . . «القاتل . . محرك الفتنة . . الظالم . . لعبة الاستعمار . .»

- «هل نحن نلتقى لآخر مرة . .» .

نظر إليها في ذهول ودهشة وغمغم:

- «من أنت؟؟» .

- «الفريسة التى أفلتت من بين مخالبك ذات يوم وأنت ملك غير متوج . . .» .

- «أذهبى عنى . . .» .

- «ألا تريد أن تلقى درساً عن المبادئ وحق الشعب؟» .

- «أذهبى . . .» .

وأدار وجهه بعيداً عنها، لكنها عادت وواجهته قائلة :

- «لقد أغرقت البلاد بفلسفتك فى بحر من الدماء . .

تردت فى شقاء ما رأته طوال تاريخها العريق»، تمنى الزعيم فى هذه اللحظات أن تنطلق رصاصة ما تستقر فى قلبه وتنهى هذا العذاب، لكن كيف؟؟

لسوف يحاكمونه وينشرون جريمته الشنعاء ليرى

الشعب المسكين كيف تزيّ السفاحون بزى المخلصين . .

وقالت فاطمة وهى تنصرف مزهوة سعيدة:

- «لقد ساهمت بجهد متواضع فى الإمساك بك . .

وسيكون ذلك شرف لى طول حياتى . . .» .

فى اليوم التالى نشرت قصة القبض على الزعيم فى صدر الصفحات، وقالت فتاة وهى تتأمل فاطمة التى كانت تصرخ فى وجه الزعيم:

- «هذه الفتاة أعرفها . . . عجبًا . . . لقد كانت تسأل عن الزعيم . . . لم تكن منا إذن بل أجيعة صغيرة . . . لابد من الانتقام منها مهما كان الأمر . . .»

وفى صبيحة يوم قبيل الفجر دفائق نفذ حكم الإعدام فى الزعيم، ورمى الرئيس الصحف وهو يقرأ النبأ فى عصبية أن أصدقاء الرئيس يتساقطون، وها هو كالسجين فى قصره، ينتظر اللحظة التى يقذف به الشعب فيها إلى هاوية النسيان السخيفة . . .

وفى الجزر الخضراء ورود جميلة، تمتع النظر، وتفوح بالعبير، وتزهى بالروعة والجمال، لكن مع الورود أشواك . . . مع النصر الكبير كانت الفرحة تعمر القلوب، وعيون كثيرة تذرف الدموع، قصة الشوك والورود الأزلية . . . وعاد أبو الحسن وعاد حاجى محمد إدريس . . .

عذراء جاكرتا [رواية]

لكن «فاطمة» لم تعد إلا فى صندوق خشبى . . وملا بسها
البيضاء الطاهرة مهضبة بالدماء . . انطلقت فى الظلام
رصاصه آثمة أودت بحياتها . . سقطت عذراء جاكرتا
شهيدة، وفى يدها وردة حمراء ذات أشواك . . وعلى ثغرها
ابتسامة رضى . . وفى جيبها مصحف صغير، تبلل أهدابها
الطويلة دمعة عشق خالد . .

وهتف حاجى محمد إدريس بصوت عال تخضله الدموع:

- «البقاء لله وحده . . وهناك . . هناك الخلود» .

